القسم الأول

تاريخ حياة

- مولد شاعر
- حديث شعره
- رامى وأم كلثوم

مولد شاعر

فتح الغلام عينه [1] على بيت ناغم . . . وكان صاحب البيت جميل للصوت عذب الغناء . وكانت ببيته الذى يقع فى حى الناصرية ، درب جنينه (مندرة) لا تخلو من عازف أو مغن من أصدقائه هواة الموسيقى ، ومنهم «موسى صادق» عازف العود الشهير ، و «محمود فخرى» و «إبراهيم الدهان» .

وكانت الأنغام الحنون تأخذ مسراها إلى مهد الغلام الوليد ، فينصت أحمد من بكاء ، وترق إلى حجرة الصبى الدارج فيهرب من وسن . . . لقد كان صغيراً طروبًا . . . وكأن الطبيعة تعرف أن الطرب بعض وسائله شاعراً . . .

وتجاوز الصغير سنى الطفولة الأولى إلى الحداثة ، فاصطحبه والده الطبيب فى سفره إلى جزيرة طشيوز [2] ، وكان ذلك عام ١٨٩٩ .

وفتنت الطبيعة فى طشيوز الغلام الوافد ، فأحبها وسحر بها ، فكان يرتع فى مسارحها ، ولكن ذاكرته لم تملّه يومًا مثله ، بل كانت تدخر الألوان والأشكال والصور . . .

ودقت للرحيل إلى مصر أجراس ارتاع لها الغلام السارح فى الغياض ، الهائم فى الرياض ، القرير الناعم بما هو فيه ، المرتاح الجذلان بما صار إليه . . . وعبثًا حاول إرجاء السفر . . .

وودع الجزيرة سنة ١٩٠١ بعد أن مكث بها سنتين ، وودع عهد الجرى واللهو ، وعاد إلى مصر ليلتحق بالمدرسة . . . وواصل أبوه أسفاره بعد أن عهد به إلى عمته . . . وكان زوجها يقيم فى حى الإمام الشافعى ، فعاش الصغير بعد طشيوز بمناظرها ، بين المقابر ، فتحول مرحه وزياطه إلى صمت أقرب إلى الكآبة منه إلى السكون . . . واستوحشت

---

(١) ولد أحمد رامى فى أغسطس سنة ١٨٩٢ .

(٢) جزيرة طشوز Thasos إحدى جزر بحر إيجة ، وهى على مسيرة ٦ ساعات بالمركب الشراعى من مدينة (قوله) مسقط رأس محمد على .

نفسه بعد فراق أبويه وحشة لم يبددها أنس مكان أو ضجيج حضر . . .

كان أحمد فى هذا الوقت قد نسى العربية تقريباً بعد أن أخذ يتكلم التركية واليونانية . . .

ورأت عمته رأيها فيه فأدخلته الكتاب . . . (كتاب الشيخ رزق) ، ثم مدرسة السيدة عائشة ، ثم مدرسة المحمدية سنة ١٩٠٣ . . . وإذ انتهى المطاف بالتلميذ الصغير إلى المحمدية أخذ يذرع الطريق إليها جيئة وذهاباً غافلا عن جزيرة طشيوز وعهده بها . . . وغافلا بالطبع عن سياستها وما تجريه عليها المقادير . . . ومن علمه السياسة ولقنه أحابيلها ؟ . . . وبينما هو يتلقى دراسته بالمحمدية ، رجعت جزيرة طشيوز إلى اليونان ، فعاد بعودتها والده إلى مصر ، بعد غياب سنتين خالهما الصغير أعواماً طوالا . . .

ولكنها عودة موقوتة تؤجج الشوق ولا ترويه ، إذ التحق الوالد بالجيش طبيباً[1] ، ثم سافر إلى السودان فى الجهات النائية عند واو وبحر الغزال ، مما اضطره إلى ترك زوجه أيضاً . . . إلى أن دنا نحو الشمال فتيسر له اصطحابها معه . . .وعاد الصبى من جديد إلى العيش بعيداً عن أبويه . . .

وعهد به فى هذه المرة إلى جده لأمه . وكان مسكنه يقع بين مسجد السلطان الحنفى وجامع الشيخ صالح أبى حديد ، مجاوراً لبيت أسرة شوقى المشهور إلى الآن ببيت الموردلى . . .

ولا ريب أن جو الصبى هنا أصفى وأروح منه عند عمته . . . بل لعل بيئته الجديدة أقرب إلى طبيعته الطروب ، فقد كان حافلا بالتراتيل والأناشيد وتسابيح الفجر تُصعِّدها إلى السماء ، فى هدأة الكون ، مآذن المساجد المحيطة بالبيت الذى يحل به شاعر تضمره الأيام .

---

(١) الدكتور محمد رامى والد الشاعر هو ابن الأميرالاى حسن (بك) عثمان : نزل مصر سنة ١٨٧٠ وقد قتل فى موقعة كساب بالسودان سنة ١٨٨٥ . كتاب (تاريخ السودان) للأستاذ نعوم شقير .

كان أحمد فى هذه الأثناء قد بلغ التعليم الثانوى[١] . . . ترف عليه مخايل الشاعرية .

وفى ذلك الوقت أرسلت الشاعرية البكر أولى طلائعها . . . ونظم طالب الثانوى قصيدة « أيها الطائر المغرد » التى نشرت فى مجلة الروايات الجديدة لصاحبها نيقولا رزق الله سنة ١٩١٠ .

ترى ما الذى عطفه إلى الأدب ؟ أهى تلك الخطابات الطلية التى كان يرسلها إليه أبوه النازح ؟ أم الوسط الذى عاش فيه ودرج ؟ لقد أخذت عين الغلام فى بيت عمته مكتبة أدبية كان يقتنيها زوجها ، وامتدت يده الصغيرة تقلب كتبها ، فعثر فيها على أول كتاب شعر قرأه اسمه « مسامرة الحبيب فى الغزل والنسيب » ، وهو مقتطفات من شعر الغزل فى عصور العربية المزدهرة . . .

ثم اطرد به حب الأدب حتى اختلف إلى ندوات المدرسة التحضيرية . وكان ناظرها الأستاذ «سيد محمد» أديبًا ، نظم لطلبته جمعية النشأة الحديثة . وكان يعقد اجتماعاتها فى فناء المدرسة يوم الخميس من كل أسبوع ، ويخطب المجتمعين — وعددهم يكاد يبلغ الألف — الخطباء : صادق عنبر ، إمام العبد ، لطفى جمعة ، محمود أبو العيون ، وأضرابهم . . .

فى هذه الجمعية كان يلقن الطالب رامى قصائد كثيرة ليلقيها حتى انتهى به الأمر إلى نظم الشعر . . . وكانت بشائر نظمه قصائد وطنية ، ثم أخذ ينظم فى المناسبات . . .

وهيأته المدرسة الخديوية الثانوية لدخول مدرسة المعلمين العليا حيث تفجر خياله . . . ومدرسة المعلمين العليا مدرسة الرعيل الأول من

---

(١) نال أحمد رامى الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٧ ، والبكالوريا ١٩١١ من المدرسة الخديوية .

الأدباء[١] . . . وفى مدرسة المعلمين هذه عرف رامى ألوانًا من الأدبين العربى والإنجليزى . . .

وحدث فى هذه الفترة أن اضطرت أمه إلى العيش فى مصر بعد أن تركت والده بالسودان لتكون إلى جوار أبنائها الذين تجاوزوا الطفولة . . . وضمت الأم أبناءها فى بيت يقع فى حىّ بركة الفيل . . . فى ذلك الجو الشرقى الذى تباركه السيدة زينب ويشيع فيه الذكريات الخوالد جامع ابن طولون والقلعة والقباب والنخيل . . .

وفى هذه الأثناء اتصل بحافظ إبراهيم وعبد الحليم المصرى، وعن طريق أخيه وهو زميل رامى فى المدرسة ، عرف إسماعيل صبرى فقد صحبه إليه ، وكان منزله يقع أمام مدرسة طب قصر العينى ، وكانت له ندوة أدبية . . . ولم يكن رامى قد طبع ديوانه الأول بعد .

وهنا يطيب أن نقف لحظات عند علاقة الشاعر بمشاهير عصره فى فنه . . . سألته يومًا عن أحمد شوقى ، فسكت برهة ، ثم قال : لقد أحببت « شوقى » وأنا كبير بعد أن فهمته لا عن إيحاء من شهرة أو ناس . وتطلعت إلى لقائه سنة ١٩٢٠ بعد أن أخرجت ديوانى الأول ، فطلبت من زوج أخت شوقى أن يجمعنا فكان لقاء (فى جروبى) ، انتهزه أحمد رامى ، فقدم إلى شوقى الجزء الأول من ديوانه . ففتحه شوقى ثم قرأ أبيات الشاعر خليل مطران فى التقديم ، فقال لرامى : كنت أتمنى أنى كنت فى مصر لأسجل لك أبياتًا . فقال له رامى . . . إن شاء الله لا يفوتك الجزء الثانى . . .

ثم سافر رامى سنة ١٩٢٢ إلى باريس فى بعثة علمية . وكان شوقى يزور فرنسا كل صيف فيلم به رامى . . . وفى سنة ١٩٢٤ عاد رامى من فرنسا ، وعرف أم كلثوم ولازمها ، حين لازم محمد عبد الوهاب « شوقى » ؛

---

(١) من زملاء رامى الأساتذة : فريد أبو حديد ، عبد الحميد العبادى ، أحمد زكى ، محمد بدران .

فالتقى الشاعران عن طريق الغناء، فقدم شوقى « بلبل حيران » و « فى الليل لما خلى » حين قدم رامى « إن كنت أسامح وأنسى الأسية » و « أخذت صوتك من روحى » .

والتقيا مرة أخرى عن طريق المسرح ، إذ قدم شوقى للمسرح المصرى مسرحيته « مجنون ليلى » ، وقدم رامى مسرحيته « غرام الشعراء » . ومثلت المسرحيتين السيدة فاطمة رشدى .

وكثيراً ما ضمهما على الود نادى الموسيقى الشرقى . . .

واعجب شوقى برامى واختصه ، وكان يطيب له أن يدعوه إلى بيته فى حفلاته ، وأن يرافقه فى خلواته خارجه . . . وكان رامى يروق له أن يُلقى شعر شوقى فى الأندية . وتوثقت الأسباب بينهما حتى إن (شوقى) كان يُسمع « رامى » شعره قبل إخراجه للناس .

و روى لى رامى أن أكثر شعر شوقى إنما نظمه فى السينما الصامتة ! . كان شوقى يزعم أنه ضعيف النظر فيسعى ويأخذ مكانه فى الصفوف الأمامية ، وهناك يترنم به (ويدندنه) . وفى الاستراحة يقابل « رامى » ويسمعه شعره .

كما كان رامى يحب شوقى ويؤثره على سائر شعراء العرب على الإطلاق فى القديم والحديث . . . سمعت منه هذا أكثر من مرة . . . ولشد ما كان يهزّ رامى قصائد شوقى التاريخية « النيل » و « مصاير الأيام » و « ناشئ فى الورد من أيامه » و « أنس الوجود » و « أبو الهول » و « توت عنخ آمون » .

أما الشاعر خليل مطران فقدعرف أنه يجلس فى قهوة سيلندد Splendid أمام حديقة الأزبكية ، فتقدم إليه بنفسه وعرض عليه شعره . وأصبح بعد ذلك يلقاه ، وزادت صلته به بعد عودة شوقى من أسبانيا .

وإذا كان رامى بعد أن نضج واستغنى عن تقديم الواصلين ، قد فوّت علينا حين صفّى شعره وجمعه فى ديوان واحد ، تقديم مطران للجزء الأول ،

وتقديم شوقى للجزء الثانى ، فإنى فى مقام التأريخ أسجل أبيات الشاعرين . . . وقد قدم خليل مطران الجزء الأول بهذه الأبيات :

حبذا الشعر خاطر يبعث النور ... ولفظ دان بعيد المرامى
كل بيت كمنبت الزهر حسناً ... وشذا أو كمرتع الآرام
بهرتنا آياته فى كتاب ... لندىّ الصبى منى المرام
مذ رمى سهمه فجاء المُعَلّى ... ما شككنا فى أنه سهم رامى

وأما شوقى فقد قدم الجزء الثانى بالأبيات :

ديوان رامى تحت حاشية الصبا ... عذب عليه من الرواة زحام
بالأمس بَلّ صدى النهى وَسَمِيّه ... واليوم للتالى الولىّ سجام
شعر جرى فيه الشباب كأنه ... جنبات روض ظلهن غمام
يا رامياً غرضَ الكلام يصيبه ... لك منزعٌ فى السهل ليس يرام
خذ فى مراميك المدى بعد المدى ... إن الشباب وراءه الأيام

أما شاعر النيل حافظ إبراهيم فقد تعرف إليه رامى حين كان طالباً بالمعلمين . وعرض على حافظ بشائر شعره فشجعه ثم توطدت صلته به فى حلوان سنة ١٩١٩ ، حيث كان يسكن حافظ ويستشفى والد رامى . . . وكان مجلسهما فى حلوان يضم البشرى والبابلى ومحمد المويلحى وأحمد فؤاد صاحب (الصاعقة) . . .

ثم حدث بعد هذا أن سافر رامى إلى فرنسا فما إنْ عاد سنة ١٩٢٤ حتى عاد اللقاء بين الشاعرين وتمكنت الألفة ... وكان حافظ فى ذلك الحين وكيلا لدار الكتب . . .

ويؤثر رامى من شعر حافظ قصائده :

« سجن الفضائل » و « حطمت البراع فلا تعجبى » و « لا تلم كفى إذا السيف نبا » و « آذنت شمس حياتى بمغيب » و « راجعت نفسى فاتّهمت حصانى » و « بنات الشعر بالنفحات جودى » و « هجعت

يا طير ولم أهجع » و « شبحاً أرى أم ذاك طيف خيال » وقصيدة زلزال مسينا . . .

ولكنه بعد هذا يفضل « شوقى » ، وكم سفّر رامى بينهما فيما ينجم عن المنافسة ، والمعاصرة ، وأحاديث المجالس بما تضمه من أنصار وخصوم ومروجى إشاعات .

* * *

وعرف رامى « ولى الدين يكن » حين كان يسكن حلوان ، وكان يقيم بها على الدوام .

وعرف من الأدباء كثيرين ممن عاصروه فى الشباب وما بعده . . .

وفى مقام الذكريات والحوادث والظروف والناس والمعالم التى صنعت « رامى » ، نذكر نادى الموسيقى الشرقى ، وكان أول ظهوره فى دار المؤيد بشارع محمد على . . . هناك كان رامى يطلع على الناس بشعره فى الأوقات التى تفصل بين وصلات الغناء . . .

واتصال الشاعر بنادى الموسيقى الشرقى زاده قرباً من النغم فهواه ، وهو الذى كان قديماً يسعى إليه بأية وسيلة . . . فكان يتعرف إلى . . . إلى « بائعى اللب » ليقف منهم على مغانى الأفراح . . . وكم ذهب إليها من غير دعوة . . . ومتى . . . فى الحادية عشرة مساء حيث يتجلى المغنى ويحلو معه السهر .

ويستمع أحمد للغناء فى شطح وأستغراق . . . وله معرفة بالصناعة وإجادة إذا غنى . . . وأكثر ميله إلى الدخيل فى العربية من النغمات الأجنبية كالنهاوند والعجم والنكريز وما إليها[1] » .

وكان المغنون يعرفون فيه « سميعاً » فيقربونه ، ومنهم فى صباه يوسف المنيلاوى وعبد الحى حلمى ، وفى شبابه داود حسنى ، وأبو العلا محمد ،

---

(١) عدد الاتحاد الصادر فى ١٩٢٥/٩/٣٠ .

وإبراهيم شفيق ، وصالح عبد الحى ، ثم سيد درويش ، كما سمع بليل ذلك العصر . . . منيرة المهدية . . .

كل هذا فى أثناء وجوده بالمدرسة الخديوية ومدرسة المعلمين ، وبعد تخرجه أى فى الفترة من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢٢ (١) .

نعم كان طالبًا فنانًا لم يشغله تحصيل العلم عن الفن ، . . . كان سيال النفس ، حنّان الحس . . . كان وهو طالب يقف فى مناحات الخميس يسمع ويبكى حتى العصر ! ! وكان يهيم وراء الباكين المتغنّين فى الشوارع والحارات حتى لقد مشى يومًا وراء عربة جميز من بيته فى حى السيدة زينب حتى بولاق . .

وكان وهو مدرس يخرج عن موضوع الدرس ويلقن تلاميذه أناشيده الشعرية بعد أن يلحنها لهم ، على غرار بعض الأغانى الشائعة . . .ومن فصله وعن تلاميذه ينتشر النشيد فى المدرسة كلها . بل فى أحيائهم التى تقع بيوتهم فيها يفعل هذا حتى فى حصص الديانة . . .

وهو لا ينظم إلا إذا سمع موسيقى أو غناء ، وإذا نظم لا يكتب شعره ، بل يغنيه ترنيمًا . ولعل هذا سر ليونة لفظه وطواعيته . . .

« ويصبو للطبيعة ومناظرها أصلية ومصورة ، ويستهويه اللون البنفسجى الضعيف " الباهت " ، لعل الكاتب أراد " الناصل " ويهش للزهر

---

(١) تخرج رامى فى المعلمين العليا سنة ١٩١٤ ، واشتغل عقب تخرجه بالمدارس الأهلية الثانوية كمدرسة القاهرة الثانوية بدرب الشمس بالسيدة زينب ، ثم مدرسة سانت ماري الثانوية . وفى سنة ١٩١٦ درس فى القربية الابتدائية الحكومية ، وظل بها حتى سنة ١٩٢٠ ....ثم صار أمينًا لمكتبة مدرسة المعلمين العليا من سنة ١٩٢٠ — ١٩٢٢ ، حتى أوفدته الحكومة فى بعثة إلى فرنسا لدراسة فن المكتبات لمدة سنتين ، أى سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٤ ، فلما عاد عمل بدار الكتب يتنقل فى مناصبها منذ سنة ١٩٢٤ إلى أن بلغ سن المعاش ، وكان قد صار وكيلا لها .

وينصت للطير والماء . ويحب الليالى المقمرة . . . وله ضحكة رفيعة مسرعة تخرج ذات ضوضاء . ويتحرك لها الشاعر من أعلى إلى أسفل . ويولع أدينا بالحسن — وما أكثر ما أولع — ويطلب فيه معانى خاصة تميزه . . . »[١] .

وإذا نظم رامى الشعر لا يدونه ، ولكنه يغنيه مترنمًا « فإذا دُعِيَ إلى إلقاء قصيدته فى حفل عام ، رأيته يتسلل بين الجموع ، ويمرّ بين المقاعد لا يكاد يحس بخطواته أحد ، حتى ينتهى إلى مكانه فيأخذ مجلسه . وإذا نودى باسمه ، مشى إلى منصة الخطابة بخطوات سريعة متزنة خفيفة اللمسات ، يكاد لفرط رقته يطير ، ثم يقف واضعًا إحدى يديه على المنصة والأخرى تظل حائرة ، فمرة تعبث بفضل ردائه ومرة تسلم خاصرته ، وحينًا تقبض على الهواء . ويلقى قصيدته بصوت عذب الرنين ، هادئ النبرات ، لكنه مع هذا الهدوء يُسمع الحفل كلّه لصفاء صوتِه ووضوحِ مخارجه . . . »[٢] .

ورامى ممن صهرتهم الأحداث والآلام . . . لقد ذاق اليتم ، وتجرع الثكل ، ومُنِيَ بفقد الأحبة ، وتشوه وجهه بفعل المرض والحوادث وهو فى الثلاثين من عمره ، وهو مغموط فى عمله فقد ظل الشاعر الفنان ١٩ سنة فى الدرجة الخامسة ! وهو آت من أوربا متفتح النفس ، واسع الأمل ، يحمل ثلاث شهادات عالية ، ويجيد من اللغات الأجنبية : الإنجليزية والفرنسية والفارسية ويفهم معها التركية ، فتقدم عليه حامل شهادة ابتدائية ! ! .

ثم خرج من دار الكتب بعد ثلاثين سنة خدمها فيها بمعاش قدره خمسة وثلاثون جنيهًا ، حين وصل زملاء له إلى المناصب الكبيرة .

---

(١) عدد (الاتحاد) الصادر فى ١٩٢٥/٩/٣٠ .
(٢) عدد (كل شيء) الصادر فى ١٩٣٠/١/٥ .

وحين أقول خدمها أقف وقفة ترسم أبعاد هذه الحروف التى قد يظن أنها مجرد لفظة كلام .

حين رجع رامى من باريس وجد الفهارس فى دار الكتب تتبع نظام اسم المؤلف، أو عنوان الكتاب (وكثيراً ما كان العنوان لا يوافق المضمون) ، أو موضوعات (وهذه أيضاً لا تعطى عطاءها كله) .

وهنا استحدث رامى أسلوب tatch word أى جوهر الكتاب (أو مفتاحه) ويجعله رأس فيشة يجمع تحتها ، وحولها ، كل ما كتب عنه متفرقاً فى كتب شتى . وقد استأداه هذا العمل أن يجرد مخزن دار الكتب واستغرق هذا بضع سنوات حتى غدا موظفو الدار وعمالها حين يخرجون الكتب على هدى (المادة) ينسبون هذا إلى (فهرس رامى) .

ولعل أكبر ما أداه رامى لدار الكتب ولمصر هو تحقيقه ومراجعته وإخراجه (قاموس البلاد المصرية) ولهذا القاموس قصة : كان صاحبه الأستاذ محمد رمزى مفتشاً بالمالية . . . وكان عليه أن يقدّر الضرائب فاتخذ من عمله منطلقاً إلى عمل كبير إذ جاب القطر المصرى بشمسية على ظهر حمار على امتداد ٢٥ عاماً همه معرفة أساس القرى. وكان أن وضع بعد هذا المسح الشامل عشرين ألف فيشة وأربعين كراسة مقسما القرى المصرية إلى ثلاثة أنواع :

قرى مندرسة (وهذه خصها بجزء) .
قرى حالية بالوجه البحرى (وخصها بجزءين) .
قرى حالية بالوجه القبلى (وخصها بجزءين) .
فكأن الكتاب من خمسة أجزاء .

وقد عرضت دول أوربا على الرجل أن تشترى كتابه هذا وتطبعه فرفض مؤثراً بلده مصر . وحدث أن توفى المؤلف قبل أن يطبع الكتاب وترك بنتين رأتا أن خير تصرف أن تعطيا مادة الكتاب لدار الكتب. فاشترت الدار عشرين ألف فيشة وأربعين كراسة بمبلغ ٣٠٠ جنيه !!

أى أن هذا العمل الكبير كانت قيمته جنيهاً فى الشهر !

وضعت دار الكتب الفيشات والكراسات فى خزانة حديدية أضيف مفتاحها إلى مفاتيح الخزائن الأخرى مع مدير الدار .

وفى هذه الأثناء كان أحمد رامى وكيلا لدار الكتب . . . وحدث أن غاب المدير فكان مديراً بالنيابة وتسلم المفاتيح مع تعريفه بها . . . ولما كان يعرف (محمد رمزى)[1] فقد استأذن المدير فى الاطلاع على كتابه والعمل على إخراجه . . . وهنا أحضر أوراق الجرائد البيضاء، وظل أربع سنوات من ١٩٥٠ — ١٩٥٤ تاريخ خروجه على المعاش ثم سنتين أخريين إلى سنة ١٩٥٦ يعمل على ترتيب وتحقيق ومراجعة الفيشات وربط المعلومات بها . . . يعاونه فى هذا العمل السيد — أحمد لطفى السيد الموظف بالدار وقتئذ[2] . وكتب أحمد رامى إلى وزير المعارف يطلب إليه الموافقة على طبع الكتاب متعهداً بمراجعة البروفات مجاناً . فبدأ الطبع سنة ١٩٥١ مواكباً عملية التحقيق . . . وتم سنة ١٩٥٦ — ١٩٥٧ وخرج الكتاب باسم :

[قاموس البلاد المصرية من أيام الفراعنة إلى اليوم]

وهكذا خدم رامى دار الكتب . . .

وخرج منها كما وصفت . . .

ومع هذا لم يشك الرجل ولم يتبرم ، بل ظل والأحداث تعمل عملها فيه — ضحوكاً متفائلا . بل لعل أحداً لم يتكلم عن الأمل مثله . . . ولا يحتج هنا بقصائد كايبة ، فقد يستعلى الإنسان على الألم ، ولكنه لا يستطيع أن ينحو من إحساسه به كل النجاة . . .

---

(١) الأستاذ محمد رمزى أخو الأديب إبراهيم رمزى .

(٢) وهو بالطبع غير أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد .

وكسب رامى المال وبرق فى يده منه الكثير ، ولكنها كانت مبسوطة كل البسط ؛ فنفد المال بدون أن يتبقى منه فضل فى بنك، أو يتخلف عنه إيراد من أرض تُغلّ ، أو بيت يُدرّ .

كان فنانًا يعيش يومه وحده . . . فلم تكن لماديات عصره المادى ، عنده ، إعتبار . . .

• • •

حياة فى سطور . . .

طفل غريب . . . شاب حالم . . . شاعر مرجّى . . . بعثة إلى أوربا . . . عالم جديد . . . لغة جديدة . . . لقاء مع الرباعيات . . . عَوْد واعد . . . صوت جديد وغريب . . . حب وتشييب . . . شهرة وأضواء فى ناحية . . . وغمط وجحود فى ناحية أخرى . . . شاعر أغانى تردد قولَه الجموع . . . وموظف تخطئه الترقيات ، وتتخطاه الدرجات فلا يأسى ولا يشكو . . . إن المال يتدفق عليه من طريق آخر أليس صاحب المسرحيات والأغانى . . . ليهنأ عباد الوظيفة بالقطرات فى لجة البحر ما يغنى عن الوَشَل . . .

فنان هايم فى (الورد النايم) وليالى القمر ، وإنسان محاطى يحب الحب ويرضى ظلم الحبيب ويهوى السهد والجفا ويتمايل على ترجيع الأغانى . . . وباحث صلب مدقق محقق دءوب يصل السنين فى إخراج قاموس من خمسة أجزاء ! !

شريط حافل وتاريخ عريض . . . من كان يظن ؟ من كان يدرى ؟ حتى هو نفسه هل قدّر هذا ؟ هل تصور البداية ؟ هل تمثل ما صار إليه ؟ هل توقع يومًا أن يقصر فى حق الشعر مهما كان السبب حافزاً ؟ أتراه يحمد ما صار إليه أم يأسى على فائت ؟ قد يسهل علينا التكهن بعد دراستّه فى شعره وأغانيه . . . فإلى هناك .

حديث شعره

ها هو ذا الديوان . . . هيا نبحث فيه عن الشاعر . والمترجم لشخصيات معاصرة . تشتد حيرته ويرهقه الحرج حين يظن الناس أن مهمته أسهل . أليس يعيش فى جوهم ومجتمعهم ويلمس المؤثرات العامة التى أثرت فيهم ، عن مكابدة وإحساس ؟ ولكنى أرى رأيًا آخر ، فالمعاصرة فى رأيى عامل معوّق . لأن الدارس يفتقد معها البلورة التى تحدد الشخصية المدروسة . . . فالشخصية لا تتحدد معالمها النفسية والفنية تحديداً دقيقًا إلا إذا درست فى ظل دراسة صحيحة للمجتمع الذى عاشت فيه ، بعد تبلوره وتحديد العوامل التى كيفته ، العوامل الاجتماعية ، والعوامل السياسية ، والعوامل النفسية ، لأن هذه كلها متصلة الأسباب بالشخصية المدروسة بينهما وثيقة قربى ولحمة نسب . . . ولا يكفى — كما يحسب البعض — الوقائع المادية التى يعرفها الدارس بالمعاصرة .

ومن ثم أضطر اضطراراً ضاغطًا إلى أن أجعل دراستى لآثار المعاصرين الأدبية ، موضوعية إلى حد ما مع إيمانى برأى الأستاذ الناقد على أدهم الذى يقول : « إن آثار الكتاب مع أهميتها فى الدلالة عليهم ليست وثائق مؤكدة فى وصف أخلاقهم وحوادث حياتهم » (١) .

* * *

عرفنا قصة والده وأسفاره . وكيف أن « رامى » الطفل الذى تفتحت عينه على الجمال فى الطبيعة لم يلبث طويلا حتى عاد صغيراً إلى مصر وواصل الأب رحلاته . . . ولكنه طفل حساس مفرط الحساسية . . .

---

(١) العدد ٢٢٩ من مجلة « الرابطة الإسلامية » الصادر فى ١٩٥٤/١١/٣٠ .

كان يحس أنه ينقصه شيء كثير . . . بل ينقصه كل شيء . . . تنقصه لفظة « بابا » التي تضفي على قائلها الأمان والرضا والطمأنينة . . . تنقصه لفظة « بابا » التي تضم من الفرح والراحة والثقة معاني جمة ، لا يعرف الصغير بعقله الطفل كنهها ، ولكنه يستشعرها بفطرته فمن له « بابا » فهو ملك صغير ملبّى النداء مستجاب الرجاء ، من له « بابا » فهو محاط باللمسات والضمات والقُبل ، ومن له « بابا » فله في كل عيد ثوب وفي كل يوم بهجة . . . وعلى كل شفة ابتسامة . ومن له « بابا» فله سمير وله صديق وله رائد . . .

لهم الله أولئك الذين يفقدون آباءهم في فجر العمر والطريق طويل والسرى حافل ! .

لهم الله أولئك الذين يزج بهم إلى معركة الحياة صغاراً أغراراً لا تقوى سواعدهم على حمل سلاح ، ولا تقوى قلوبهم على ثخن الجراح ، والمعركة لا ترحم ، وما من قائد يدبر أو درع تقي ! . . .

لهم الله أولئك الذين حكم عليهم أن يقفوا بأعوادهم المرتجفة في هوج الرياح بلا حمى من مأوى يقل أو ندى يطل أو جناح يكن أو ظل يفيء ! . . .

مر الصبا من غير ما يا أبي	بها أناديك وجـاء الشباب
كم مر بي عيد تمنيت أن	يلبسني فيـه جديد الثياب
وحين أدركت المنى لم أفز	من ثغره بالبسمات العـذاب
لم أمتَّع من أبي مـرة	بمجلس حلو نضير الجناب
أو خلوة تنـدى أحاديثـه	فيهـا على سمعي ندى السحاب
نشأت في يتم ولي والـد	فما اكتفى الدهر بهذا العذاب
وزادني أن غـاله فانطوى	بمـوته الصفو وعم المصاب
حرمتـه حياً طليح النـوى	وفتـه ميتاً لَقًى في يباب [1]

---

(١) قصيدة « يا أبي » ص ٤٢ من الديوان ط. دار الكتاب العربي .

على أن فى الأبيات خبنًا ، ونلاحظ أن بحر السريع الذى نظمها منه صعب جدًا . وفى قلبه جرح آخر غائر خلفه أخوه الذى راح :

مستوحشًا فى عيشه ومماته ‏ ‏ متغرب الأموات والأحياء
هجر الديار وأهلها لاعن قِلًى ‏ ‏ إن الديار أحقّ بالحوباء
لكن حبٌّ المجد أشعرَ قلبَه ‏ ‏ رغم الهوى شيئًا من البغضاء
وقضى الحياة بعيد مطّرح المنى ‏ ‏ والهم شرٌّ فواتك الأدواء
حتى قضى جهداً وراح شبابه ‏ ‏ ونأى عن الزوار أى تناء
وثوى وما من واقف بضريحه ‏ ‏ راع سوى صفصافة فرعاء
تبكى بأنات النسيم إذا سرى ‏ ‏ وأرنّ فى أغصانها اللفّاء[1]

هل اكتفت الأيام بهذا المقدار ؟ . . . لا . . . هناك سهم جديد راشه فأصماه :

هى أختى درجت فى كنفى ‏ ‏ ثم أمست وهى للروح سكن
علّتُها طفلاً على بعد أبى ‏ ‏ وهو نائى الدار عنى والوطن
ثم دللت صباها فنمت ‏ ‏ كالنبات الغض فى ظل الفنن
فطواها الموتُ عنى بغتةً ‏ ‏ فى الشباب الغضّ والوجه الحسن[2]

ولما كان الألم بوتقة النفوس الحساسة فقد صهرت المحن المتوالية « رامى » ، وتركت عليه ميسمها ، ففيه شفّة الحزن ، وفيه ومضةُ المجرّب ، وفيه حنّةُ البكىّ ، وفيه رحمة الشجىّ ، وفيه رقة النجىّ ، وفيه برّ العائل . . .

فإذا أضيف هذا كله أو أضيف إلى هذا كله شاعرية الشاعر ، وفنية الفنان . . . فذاك رامى . . .

تركت له أخته التى حدثنا شعره عن مصابه فيها ، ولداً كان لا يزال

---

(١) قصيدة « صفصافة [illegible] » . ص ٤٤ من الديوان
(٢) قصيدة « أختى » ص [illegible] من [illegible]يوان .

فى المهد صبيًّا ، فهل ناء به ؟ شعره يقول : لا . . . إن حديثه عنه حديث الودود العطوف حتى لتشتهى أن تسمعه :

تركت لى مَلَكًا فى صورة ... من جبين واضح النور فتن
وعيون تسحر اللبَّ بما ... أودعته من ذكاء وفطن
وفم حلو اللَّمَى مبتسم ... فرّ عن درّ توارى واستكن
فيه منها ما يعزينى على ... فقدها إما هفا قلبى وحن
وابن أختى قطعة من كبدى ... أفتديه العمر روحًا وبدن[1]

هل يوجد أبرّ من هذا بين الآباء بله الأخوال ؟ لقد تعهد رامى الطفل . . . تعهد جسمه وعقله حتى صار رجلا يعتده الوطن بين ضباطه وتدخره مصر ليوم موعود . . .

هنا جمال الإشارة فى الدر الذى توارى واستكن ، وهنا جمال التصوير، أكاد أرى الطفل غضًّا فى الشهور الأولى وقد أطلّت أسنانه الطفلة برءوسها فى فمه واسمًّا يبدُ منها ، بعد ، غير نقط بيضاء متناثرة فى الفم البسّام . . .

وتلك قاصمة الظهر . . . إن قلبه فى هذه يمتحن امتحانًا رهيبًا ... هيهات لهذا الجرح من ضماد ولا آس . . . وكيف يُداوى قلب الأب من جرح البنوة ؟ . . . إنها البنته « أحلام » :

سميتها « أحلام » من طول ما ... ناجيت فى دنياى أحلامى
عشقتها طيفًا رفيقَ الخطى ... يسبح فى آفاق أوهامى
لا ينثنى عن فتنتى خاليًا ... أهيم فى صحـراء أيامى
أو ساهراً تحت الدجى ساهداً ... أردّد الشكوى بأنغـامى
سميتها أحلام حتى أرى ... أنى أضمُّ اليـوم أحلامى
إنْ نظرتْ عينى إلى عينهـا ... غمرت فيها كلّ آلامى

(١) قصيدة « أختى » ص ١٠٤ من الديوان .

نسيت من ماضيَّ ما نالنى ... من بُرْح أوجاعى وأسقامى
وعشت فى الحاضر عيشَ الرضا ... فى جنة من روضَى النامى
سميتها أحلام يا ليتنى ... سميتُ شيئًا غيرَ أحلام
رفَّت كزهر الروض فى غصنه ... لما زَهَا تحت الندى الهامى
ولم تكد تفتر عن بسمة ... كالومض فى بحر الدجى الطامى
حتى ذوت والعمرُ فى فجره ... لم يَعْدُ أفقَ المشرق الدامى
راحت كما ذابت خيوطُ الضحى ... ولم أزلْ فى ليل أحلامى(١)

لقد عرف رامى الألم فى أثقل صوره على النفس وأشدها وقعًا. عرفه فى صورة الأب الذى برح به السقام فلا هو يُرجى ولا هو يُفدى ولا هو يشفى ، ولكنه يذوى فيذوى معه كل إشراق .

وعرف شاعرنا الألم فى صورة الأخ الودود يخلى مكانه فى الدار ويعمره فى القلب . . .

وعرفه فى صورة « أحلام » ابنته التى ما كاد يشمها ريحانة حتى تساقطت أوراقها فى يده ، فلم يبق منها إلا ذكرى من مس العبير . . .

من يلوم الرجل أو يلحاه إذا قال بعد هذا الكبد كله :

أنا للحزن وما يبعثه ... فى خيالى من تهاويل الشجن
كلما صرت بنفسى خاليًا ... يتبدى من غيابات الزمن
يعرض الماضى فيسقينى الذى ... ذقت فيه من أفانين المحن
ثم يدعونى إلى مجلسه ... بين أوّاه وباك من حزن

إن الشجىّ يأنس إلى الشجىّ . . . والبكىّ يستريح إلى البكىّ ، ولا يجمع القلوب كالألم ، ولا يرقىء الدمع كالتأسى . . .

وفى نفس رامى ندوب كثيرة يجرى منها الدم . . رثى أخاه « محموداً » فهاج الرثاء هذه الأشجان :

---

(١) قصيدة « أحلام » ص ١٠٩ .

جدك سالت نفسه فى وغى سنّار ما بين القنا المشتجر
وعمك المبكى ذاق الردى فى ميعة العمر وعهد الصغر
يا ثالث الثاوين فى غربة أهذه غايات ذاك السفر[1]

ويلام إذا شكى أو بكى ! ! . . . وتسأله عن هؤلاء الخليين اللوّم فيقول :

يلومنى الناس ولم يشرعوا فى نهر أيامى الذى أجرع
رنق أسقّاه وبى غُلّةٌ فى الصدر لا تشفى ولا تُنقع
أعلم ما فى مائه من قذىً وأستقيه وأنا طيع
يا نهر أيامى أمَا نهلةٌ تروى الصدى أو جانبٌ مُمْرِع
وأقفر الشطّان من جنة فأوحشَ المصطافُ والمربع
وهاجر الطيرُ فلا صادح يشدو على الأغصان أو يسجع[2]

فهل يُلام إذا أنّ :

وفى فؤادى منبع للأسى تفيض منه مؤلماتُ الذكر
وكل ما فى العيش من راحة أو تعب أو دعة أو خطر
مذكرٌ نفسى الذى فاتنى آنسُ للدمعِ إذاً ما انحدر

حتى الدعة تذكره بآلامه وأحزانه ! . . . ألا يطيف بك هذا المعنى قول القائل :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

ذو العقل وذو الحس الطاغى يشقى فى النعيم بعقله ! . . . وهل نريغ فنّاً إلا على ضوء نفوس تحترق ؟

لقد عرف رامى الألم ، ولكن ألم الشاعر ألم موجب لو صح هذا التعبير ،

---

(١) قصيدة « دمعة على محمود » ص ٦٤ .
(٢) قصيدة « نهر الحياة » ص ٣٣ .

فلم يقعد به عن السير ، ولم يعجزه عن النماء والازدهار . . . لقد بكى وشكا ، ولكنه ليس بكاء العاجز الذليل وليست شكاة المستسلم الخائر . . . ولكنه صاغ الدمع أوزانًا ، والشكوى ألحانًا ، والألم شعراً . . .

وليس الذى تتركه الأيام معذبًا كالمريض المشفى ، لا هو حى فيُرجى ولا هو ميت فيستريح ، ثم يمده الألم بهذه الأبيات ، ويعينه الشجن على تجسيم هذه الصورة . . . ليس هذا بشاك تنفرك شكواه ، ولا باك يزعجك بكاؤه ، ولكنه إنسان له قيم وله مشاعر ، وله أحاسيس ، وله دموع تسكب على نفسك شؤبوبًا من الرحمة وبرداً من العزاء . . .

ألا تمس هذه الأبيات نفسك فى أرق مواضعها :

ليس الشهيد هو الذى يطوى الثرى ويقرّ تحت جنادل ورجام
لكنه الحىّ الذى فى قلبه من طعنة الأيام جرح دام
كالطائر المجروح ضم جناحه طول الحياة على حداد سهام
سكنتْ فما انتزعتْ مكينَ سنانها كفٌ وماسلته كاسُ حمام[1]

هذه صورة إنسانية . . . إنه إنسان ذلك الذى يستقطر النعمةَ من الألم . . . كالعالم البصير الذى يستخرج التبرَ من تراب المنجم . وقد يراه الكثيرون فلا يزيدون على أن يجعلوه لأقدامهم موطئًا ! . . . بل لعلهم ، أو لعل بعضهم ، يسخر من ذلك العاكف على التُرْبِ الواقف عليه وقوفَ شحيحِ المتنبى وقد ضاع خاتمه . . .

هاتى املئى كاسَ الشقاء فإننى . أستمرئُ الأحـزانَ يا أيامى[2]

تُرى كيف تُستمرأ الأحزان ؟ ولِمَ ؟

الحزن أدبنى وهذب خاطرى وأنالنى أفقَ الخيال السامى
وأسال أسرابَ الدموع فصغتها صوغ المعانى فى شجِىّ نظامى

---

(١) و (٢) الديوان ص ٦٥ – ٦٦ قصيدة « نعمة الألم » .

وأرقّ إحساسى ومدّ عواطفى فتوصلتُ كلّ الناس فى أرحامى
قاسمتهم أحزانهم وحملت من أعبائهم شطراً من الآلام (١)

إنه يمتح النعمة من الألم لعله يحمل نفسه على التفاؤل حملا ليرى الجانب المشرق . . . من الأشياء حتى الألم . ولكن أيبلغ به الأمر أن يستزيد من الشقاء ؟ . . . إنه يسخر بلا شك حين يقول :

هاتى املئى كأس الشقاء فإننى أستمرئ الأحزانَ يا أيامى (٢)

وهو يسخر أيضًا حين يقول :

ماذا أودّ من الزمان وقد غدا يعتدنى خصمًا من الأخصام

إن الأمر والاستفهام فى البيتين قد خرجا عن معناهما الحقيقى كما يقول البلاغيون . . .

ماذا أود من الزمان وقد غدا يعتدنى خصمًا من الأخصام
ما زال يفرى فى نواحى جلدتى ويلح فى إذواء فرعى النامى
حتى غدوت وتحت أطباق الثرى بعضى وبعضى نُهزةُ الأيامِ (٣)

وبعد، فلست أقول إن الشاعر يعشق الألم ويتمناه، ولكن ما أردت أن أقوله هو أنه يكيف نفسه على هوى الظروف التى تلم به ويستعلى عليها، بأن يحول قتامتها إلى إشراق الفن، ويستبدل بجهامها جمالَ القصيد . . . على أنه فى صراع دائم بين مرارة الحقيقة، وتفويف الخيال . ولكنه عوّد نفسه « أن ترى أفياءَ هذا العيش ظلَّ جهام » . . .

حزن على الماضى وخوف عاجلٍ مما يخبئ آجل الأعوام
بين الحقيقة والخيال مصارعٌ أودت بما فى النفس من إقدام
لكننى عوّدت نفسى أن ترى أفياء هذا العيش ظلَّ جهام

---

(١) و (٢) و (٣) ص ٦٦ من الديوان .

وأخذت أذنى بالنواح فأصبحت تستعذب الأنات فى الأنغام
وتركت عينى للدموع فأصبحت فى الضوءِ آنسةً وفى الإظلام
ورجعتُ وطنت الفؤاد على الضنى فاعتاده ، واعتدت بَرحَ سقامى
وغرست فى قلبى الشجون فأثمرت وجنيت منهـا نعمة الآلام[1]

. . . .

لنفتح الآن صفحة جديدة على رامى « الأب » لنسمع معاً هذه المناغاة :

يا بنىّ ، ما أحيـلى يا بنى أنتَ ظلٌّ مدّه الله علىّ
نعمةُ العمر وتذكارُ الصبا ! والأمانى التى عزت لدىّ
لست أنساك جنيناً خافيـاً فى ضمير الغيب أدعوك إلىّ
أتمنـاك لعينى قـرةً حين ألقـاك وليداً فى يدىّ
أرقب اليوم الذى تبسم لى وترى آى الرضا فى مقلتىّ
فأناجيـك بألحـان الهـوى سـابقات خاطرى فى شفتىّ
كلمـات هى لا معنى لهـا غير أن تسمع منى أى شئ
فـتراعينى ولا تقـوى على غض أجفـانك عنى يا بنىّ

إنه هنا يحلق فوق الشعر وفوق الحياة المادية بقيمها وتوافهها على السواء . . . إن ألحان الهوى التى يتحدث عنها الأب فى الشاعر أروع وأغنى وأفتن من كل لحن فى الدنيا حنّ به ناى ، أو غنّى به عود ، أو رجعته قيثار ، أو رنمه وتر ، أو شدا به غرّيد ، أو دفّ به صوت واو صيغ من سلسال الفضة أو رنين البلّور . . . وما ألحان هؤلاء جميعاً إذا خفق القلب الإنسانى بحب البنوة وناجاها بألحان الهوى ؟

إن الشاعر على فنه لا يدرى كيف يصفها . . . وتبلغ حيرته مداها فيتمتم :

(١) ص ٦٦ من الديوان .
(٢) قصيدة « يابنى » ص ٥ .

كلمات هى لا معنى لها غير أن تسمع منى أى شى
أتراها تكون أشواقًا رقراقة ؟ إن الشوق بعضها
أتراها تكون حياة دفاقة ؟ إنها أكثر من حياة اندمج بعضها
فى بعض وسرى فيه واتحد به .
أتراها تكون منى حلوة ؟ إن المنى منها وليست كلها

. . . إنها ألحان الهوى . . . وإنها أشواق وحياة ورجاء وخوف وماض وحاضر ومستقبل . إنها الأبوة والبنوة . . . إنها . . . لست أدرى . . . أشهد أنى حائرة . . . بل لعل حيرتى أكبر فلست شاعرة . . . إنها :

كلمات هى لا معنى لها غير أن تسمع منى أى شى

* * *

وإذا كان ديوانه[1] قد خلا من المدح والهجاء والسياسة فذلك لأنه كان يغنى لنفسه ويرسمها فى أحوال شتى .

وقد صور رامى نفسه فى حالتى صفوه والكدر وهو يشكر مصوراً صديقًا :

أريتنى البحر طاغى العبـاب تحطم أمواجـه فى الصخر
وصورت لى البحر فى زهـدأة تجلت صحيفتـه كالغـدر
كذلك حالات نفسى تـرد د بين الصفاء وبين الكدر[2]

ولم ينس عاشق الطبيعة أن يغرى صديقه بها فى هذه الهمسات :

تعـال فقد سئمت نفسنـا من العيش فى غمرات الحضر
نهيم مع الطـير فى جـوه نمجـد مـا خلق المقتـدر[3]

---

(١) الشاعر يصفى شعره مع كل طبعة . ومن الجائز أن يكون له شعر فى المدح والهجاء والسياسة أسقطه عند الطبعة التى بيدى .

(٢) قصيدة « إلى مصور » ص ٣٥ — ٣٦ .

(٣) فى هذا البيت قلقلة فى الموسيقى وخير من (ماخلق المقتدر) ، فى رأيى ، (ماأبدع المقتدر) .

أردد صوت الطبيعة شعراً ، وتنقل عنها أجل الأثر
منـاظر هـذى الطبيعة رسم وذهنـك أنت إطار الصور [١]

إن الشاعر شارد النظرة لقِس النفس ، موزع الفكر ، تغشى وجهه سحابة داكنة . . .

. . . ما هذا الشحوب الذى نرى بوجهك بل ما هذه النظرات [٢]

. . . لقد بعث السؤال شجنه وأيقظ لواعجه . . .

يقولون ما هذا الشحوب الذى نرى بوجهك بل ما هذه النظرات
تشرد لحظى ثم غشته ترهـة كما غشيت شمس الضحى المزنات
فلا تسألونى كيف حالى وما الذى عرانى وحسبى هذه الصفحات
لقد جف من هذى الحياة ربيعها فلا عجب أن تذبل الوجنات [٣]

وهو دائم التحنان إلى الماضى :

أحن إلى الماضى كما يذكر الحمى طليح نوى ترمى به الفلوات
وأندب أيامى اللواتى تصرمت بشعرى إذا ضمتنى الخلوات [٤]

دائماً شعره ! . . . كما يغالى بالفن الفنان . . . ولِم نعجب وفى الشعر هناؤه وفى الشعر عزاؤه :

وفى الشعر تأساء وفيه رفاهة وفيه لقلب يافظ نشـوات
أنيم به حزنى كما تبعث الكرى إلى عين طفل صارخ نغمات [٥]

---

(١) قصيده « إلى مصوره » .
(٢) البيت كاملا :
يقولون ماهذا الشحوب الذى نرى بوجهك بل ما هذه النظرات
(٣) و(٤) قصيدة « شعر الدموع » ص ٣٧ — ٣٨ .
(٥) قصيدة « شعر الدموع » ص ٣٨ — ٣٩ .

حزنه ؟ من نكأ الجراح ؟ .

« لقد ألفت نفسى الشقاء » . . . إن الألفة هنا لا تكون إلاّ بعد مكابدة طويلة ورياضة أطول . . . لقد ألفَ الشقاء بل زاد فحمد له صنعه :

لقد ألفَتْ نفسى الشقاءَ وإن يكن ... أليمًا فمن آلامه الخطرات
وليس يجيد الشعرَ إلا معذب ... تضرّم فى أحشائه الحرقات
ولو كان كلٌّ ناعمًا فى حياته ... لما بهرتكم هذه النفحات
فأهلاً بأحزانى وأهلا بوحدتى ... إذا كثرت من نفسى اللهفات
فإنهما أرعى وأبقى مودة ... إذا فاتنى أهل وعزّ لدات[1]

وهكذا انتهى إلى قرار . . . ولو إلى حين ! . . .

• • •

وشاعرنا — ككل فنان — كله إحساس ، وهو يلمس ويدرك ويعيش بحسه هذا ، فلا غرو أن يغالى بقلبه موطن الإحساس ، فهو إذ يعدد غواليه يقول :

وفؤادى أعزّ ما أقتنيه ... فى حياة أعيش فيها بحسى[2]

وهو يقبس ألفاظه من شعلة إحساسه المتوهجة ؛ فحين نسمعه يقول للذى أهداه صورة الأمل . . . : « أهديت لى حقبًا من الأجل » نحس فى « حقبًا من الأجل » شحنة من الإحساس .

ويصور الأمل فيقول :

كم مأمل بعث القرارَ إلى ... نفس من الأقدار فى وجل
وجلا من الأيام ظلمتها ... فبدت وفيها متعةُ المقل

إن « متعة المقل » هذه لا تصدر إلا عن نفس غنية بمعانى الجمال الفنى ، نفس تحسه بكل خالجة فيها ، إحساسًا عارمًا يلذها لذاذة

---

(١) قصيدة « شعر الدموع » ص ٣٨ — ٣٩ .
(٢) قصيدة « خاطرة » ص ٤٨ .

تجهد فى وصفها فيكون قصاراها أن تسميها « متعة » وهى لفظة رويَّة من الشعور . . .

* * *

وأحيانًا تتأزم نفسه تأزمًا لا سرية فيه من أمل ولا شية من رجاء، وإنه لعلى هذه الحال إذْ بصديق يهدى إليه صورة الأمل . . . وكان المأمول أن تنبسط نفسه لدلالة الهدية وإيحاء الصورة ، وقد خلته كذلك من استقباله للصورة الفنية التى يعدها « حقبًا من الأجل » ، ولكنه ما لبث أن تنزاور عنها وهو يتمتم :

لا شىء فى الدنيا يحببنى ... فيها فأقطعها على مهل
بعدت عن نفسى مطامعها ... وشقيت بالأعلى من المثل
ولقد غنيت عن الحياة بما ... فى خاطرى من مشهد حفل
وسمعت من أملى ملاحنه ... حتى سمعت مناحةَ الأمل

* * *

أجد البكاء وراء مقدرتى ... والدمع راحة قلبى الثكل
ما زلت والأيام ظالمة ... أسقى الأسى علاًّ على نهل
حتى إذا سجعت مطوقة ... ألفيتها بومًا على طلل

ولكنه شاعر . . . وهو فنان يحس دبيب الحياة فى كل شىء حتى فى الجامد ، ومن ثم انثنى إلى الصورة الجميلة يتأملها ويقول كأنه يعتذر إليها متودداً :

بالله يا قيثارة الأمل ... ألاَ أنمت يواقظ العلل
وندبت بالألحان تشربها ... نفسٌ معطَّشَةٌ إلى بلل
وملأت جو الصمت من نغم ... فالصمتُ شرٌ بواعث الملل
لولا المنى وبعيد مطلبها ... كانت حياةُ الناس كالوشل

ورأى إذا ابتأس شاه لون المرئيات فى ناظريه ، وليس هذا بالشىء العجاب . فالإنسان فى الحقيقة لا يرى بعينيه فحسب ، ولكنه يرى أيضًا

بجوه النفسي الذى يلون الدنيا بلونه الخاص زاهيًا كان أم كابيًا . . . ألم تنكر ليلى بنت طريف على شجر الحابور إيراقه بعد موت أخيها[١] وكان الأخلق به — فى نظرها على الأقل — أن يحزن معها ويشاركها أساها ؟

ألم يقل رامى فى قصيدة نهر الحياة :

والنفس إنْ تصفُ أمانيها ... طمى عليها المنظر الممتع
وإن غدت مظلمة ما رأت ... فى ظلمة الأيام ما يسطع

ألم يعلل ابن الرومى المرور بكاء الوليد تعليلا كابيًا من وحى جوّه ؟ ألم يسأل رهين المحبسين :

أبكت تلكمُ الحمامة أم غنت ... على فرع غصنها الميّاد ؟

وكذلك فعل رامى مع البدر والنجم والطير والرعد[٢] :

كم أسأل البدر لِمْ تصفر صفحته ... اللزمان وما تجنى دواهيه
وأسأل النجم لم ترفضّ مقلته ... أللبكاء على آلامنا فيه
وأسأل الطير لم ناحت نوائحها ... أللعويل إذا غرّت أغانيه
وأسأل الرعد إما مد قهقهة ... أساخر بالذى بتنا نرجّيه
من عيشة غر هذا الناسَ ظاهرُها ... كما يغرّ سرابُ البيد رائيه

ولكن مما يعزينا أن شاعرنا كالنعمان لا يتصل بؤسه . وكذلك رامى لا تبدر جفونه فى مطلع قصيدة حتى يفتر عن ابتسامة فى آخرها ، تغرى بالمرح وتدعو إليه كما تصفو السماء غبّ المطر . . . فبينما ينذر الشاعر بزوال الحياة :

إن الحياةَ فلاةٌ أنتَ قاطعُها ... وكلّ مرحلة يومٌ تقضّيه

إذ به يدعو إلى التمتع بها والاطمئنان فيها :

---

(١) تقول ليلى :

أيا شجر الحابور مالك مورقاً ... كأنك لم تحزن على ابن طريف

(٢) قصيدة « سر الحياة » ص ٣١ — ٣٢ .

فعاشر الناس بالحسنى وكن مرحًا جذلان والقلبُ قد عزت أواسيه
وعزّ نفسك لا تحزنك نائبة ونم منام رخىّ البال هانيه

ومرهفو الحس بعامة ، والشاعر بخاصة ، إنما مثلهم كمثل الروض ، فبينما هو يبكى بدموع الندى إنه به يضحك بأكمام الزهر ، ويغنّى بلسان الطير ويمرح فى انسياب الغدير .

ورامى إذا تألم زهد فى الحياة والأحياء، وهرب من دنياهم إلى عالم آخر ، ولا يجد فى شىء لياذاً كالوحدة التى يخلو فيها إلى نفسه بماضيها وحاضرها وظنونها وخواطرها وأوهامها ومشاعرها وآرائها ومذاهبها . وتراه فى وحدته فتحسبه قد خلا وهو فى عاصف يموج من الأحلام والخيالات والرؤى . . . وما الدليل ؟ . . . إذن إليك هذه الأبيات من قصيدة « الوحدة »[1] :

رقد الساهدون حولى وعينى ليس تقوى على انطباق الجفون
فإذا ما خلوت أسمع فى الوحدة نفسى وأستجيش حنينى
وأرانى وقد غنيت عن الناس بنجوى خواطرى وظنونى
خلت أنى أعيش فى عالم الأرواح لا فى سلالة من طين
آنستنى نفوس من تركوا العيش وهم منه فى قرار مكين
من وفىّ أراق من خالص الروح فسالت فى حب غير أمين
وشهيد فى مبدأ وقف العمر عليه وكان غير ضنين

وإذا بلغ الضيق به مداه جأر وبه من سانح الغضب عارض :

مرحبًا يا عوالم الروح إنى ضقت ذرعًا بعالم مأفون
آلمتنى الحياة فى هذه الدنيا فهل لى إليك من يهدينى

ولكن صوت الشاعر يعمق وقعه حين يقول :

أنت أنقى نفسًا وأطهر روحًا فانتقينى من بينهم وخذينى

---

(١) ص ١١ – ١٢ .

أإلى هذا الحد برّح به الألم ؟ « فانتقيني من بينهم وخذيني » . . . إن الاصطفاء لا يكون إلا للثمين المميز . ومن ثـم يوحي تعبيره بشعوره أنه غريب بين الناس ، وفي غير موضعه منهم ، غرابة النفيس يحسبه الجاهل بعض تراب المنجم وهو تبره المنشود . . .

وشاعرنا يعلم من نفسه أنه موهوب . وإنما الذي يرتجيه دائماً هو شاحذ للموهبة . وقد لمحت هذا في شعره أكثر من مرة . فتارة يقول مهيباً بنهر الحياة أن يرويه وكل ظامئ ليهتز ويربو :

لو كنت تروي ظمئي ما غـدا شطّك لا يزهو ولا يينع
فالنفس إنْ تصفُ أمانيّهـا طـَمـَى عليهـا المنظر الممتع
وإن غدت مظلمة ما رأت في ظلمة الأيام ما يسطع[1]

وآناً يقول . . .

شـعلة في قلبه لوهاجهـا هائج يسطع في الدنيا ضياها
وحياة ملؤها المـَحـْلُ ولو كـَرُمَ الناسُ قطفنا من جناها

وحين يظن أن الهاجرة ذرّت أوراقه وصوّحت أزهاره وأضاعت نشره ، يلوذ ببنات الشعر يبثها شكواه ، وحين يطول السرار ، يرقى الهمس إلى آذاننا رويداً رويداً . . . حتى لتسمعه يقول لها :

بنات الشعر ما ألهاك عني وماذا نفـر الأشـعار مني
دعيني يا بنـات الشعر أبكي على ما نالت الأيام مني
أمـَـان متن في قلبي صغاراً كما ذوت الكمائم فوق غصن
وزرع طاب لم أقطف جنـاه وكم بذرت يداي ولست أجني
فكوني يا بنات الشـعر أهلي وأشياعي لدى البلوى وركني
وغني من أسـاك وألهميني فبينك في الهوى عهـد وبيني
أراك بخاطـري وأود أني أراك بنـاظريّ وأن تريني

---

(١) ص ٣٢ .

لقـــد تركتني الأيام نضــواً أود من الزمان دنوّ حيني
فبكّيني إذا همـــدت عظامي ونوحي حـــول مقبرتي بلحني
عشقتك يا بنـــات الشعر حيّاً فلا تنسي عهـــودي بعد بيني (١)

وككل فنان يحس — مهما نال الشهرة والإعجاب — أنه مغبون . . . تفسر هذا قصيدة رامى « النبوغ المقبور » :

زهرة أهدت إلى الريح شـــذاها حين هبّت سَحَراً فوق رباها
أينعت إذ جادَها صوبُ الحيا وذوت من بعد أن جفّ نداها
وذرت أوراقَها هاجـــرةٌ فغدت مسلوبةً كلّ حلاها
صوّحت لم يملأ النفسَ لها عبقٌ أو يسحر الطرفَ سناها
هذه حال الذى عزّ على نفسِه الحرّةِ تحقيقُ مُناها

ويبدو شاعرنا متفائلاً أحيانا . . . أو هكذا تحدثنا طلائعُ ديوانه . . . فقد رسم للحي صورةً رمزية فى قصيدته « طيور الأماني » تلك الطيور الحائرة الحائمة تتشوف ولا تظفر ، وتهفو ولا تنال ، والحَبُّ كثير والماء دَفّق سائغ ، وهى فى هذا النعيم غرثى ظمأى تقتات الخيال والأمل حتى إذا دنت ، أقصاها عن الغصن المحمّل بالثمر ، حاصب ، وصدها عن الغدير المصقول الصفحة قاس منّاع . . . ويرصد الشاعر هذا كله فيُشبّه له ، وتنبعث أشجانه فيقارن بين الطيور والناس على هذا النحو :

هكذا نحن فى الحياة نريد الصفو فيهـــا والصفو نائى المجانى
ونريد النعيم فيها ومن دون مُنانا سَـــدّ من الحرمـــان
ونشيد البنا من الأمل الســـامي وفأس الزمان فى الجـــدران
ونبث البذورَ فى الأرض والدهرُ ضنين بالعـــارض الهتّـــان
ومن الزرع باسق جفت الأعمار فيـــه وما جنتهـــا يدان

---

(١) قصيدة « بنات الشعر » ص ٢١ .

ومن الماء دافق جَفّ فوقَ الأرض   ما مس قطــرَه شــفتان [1]

ولكنه ما لبث أن تعزى . . . بِمَ ؟ . . . بالأمل . . . وهل فى غيره عزاء وتأساء ؟

فلنعش بالمنى فكم صدع البدْر   حجابَ السحابة المدْجَان
ولنعش بالمنى فكم جرت الأقدار   بالعز بعد طول الهوان

وها هى تى بسمةٌ ترف على الوجه المندّى بالدموع . . .

فارفعى الصوت بالغناء قليــلا   بدل النوح يا طيور الأمانى

« فارفعى الصوت بالغناء قليلا » . . . قليلا فحسب . . . إنه ليس خاليا ، ولكنه يستروح . . . علّ فى الغناء عزاء . . .

وهو عند ما يضيق بحياة الأحياء يلوذ بحياة الخيال ويروض قلبَه عليها :

أخلد اليوم للسكينة يا قلب   فانعم بهــا ديار مقــام
فانس برحَ الحياة من خيبة الحب   ومن صحبةِ الرفاق اللئــام
لك من رنةِ الحرير أغان   ناديات بأعــذب الأنغــام
ومن البدر فى سكون الليالى   ســامر بالضياء والإلهــام
ومن الوهم والخيــال ابتــداع   من تصاوير فكرى الرســام
فاهجر الناس إنما لذةُ العيش   حياةُ السكون والأحلام [2]

وكما يلوذ بالخيال من الناس ، يلوذ به من خيبة الحب الذى يسكب عليه هذه الدموع :

يا ريشة الوهم صــورى لى   فى صفحةِ الخــاطر الحزين
ما جفّ من يانع جنِىٍّ   وغاض مــن ســلســل معين
ويا طيــور الخيــال خَنّى   فى دولة الليــل والسكون

---

(١) « طيور الأمانى » ص ٨ — ١٠

(٢) قصيدة « حياة الخيال » ص ٢٦ .

ورفــرف فى فضـــاء صدرى ورجّعى من صدى أنينى [١]

وتعتريه أحيانا سانحة يتأمل فيها نفسه وهواه ، وهمومه وشكواه ، فيبتسم فى سمت الحكيم الذى بلا الدنيا فآل به اختياره إلى التسليم بواقعها على علاته ، واهتبال فرص السرور والنهل من منابعها الصافية التى لا كدرةَ فيها ترنق الصفاء . وأين هذه المنابع ؟ . . . فى حضن الطبيعة الوهوب :

هذه روضة وهذى الطيــور تتنــاغى وللغـــدير خرير
وذكاء عند الأصيل طمى منها على الكون عسجد منثــور
فتمتع بما ترى من جمال الكون وانس الذى تُكنّ الصدور

إنه يذكرنا بأبى القاسم الشابى وشعراء المهجر بما فى شعرهم من روما نطيقية وحنين إلى الطبيعة. وكانت الروما نطيقية فى ذلك الوقت هى المذهب السائد فى الأدب شعره ونثره . وتستشعر نفسه الوحشة أحيانا :

العيش طال دجاه فهل أطالع فجــره
وهل أظــل غريبا كالطير هاجر وكره [٢]

وهو متفزز الأعصاب شأن كل الحساسين المرهفين . . . ومن ثَمّ تراه موزع النفس بين ماض أسوان ، وحاضر لهفان متطلع ، ومستقبل مجهول مـرْجُوّ ، متوهم لا يدرى أشر أريد به فيه أم خير يتهدّى . . .

قد تقول : إنه لا يستقر على حال . . . نعم ، وهل حياة الشاعر إلا قلق كلها ؟ . . . سمّه الضاحك الباكى إذا شئت :

كم أقضى النهار تضحك سنى راضيا بالحيـــاة طلقا جليدا
فإذا ضمنى الفــراش تقلبت عليــه لا أستطيع هجودا
وتر مطرب الأغاريد يبــلى وهزار يرثى الربيع نشيــدا

---

(١) ص ٢٨ .
(٢) « أمنية » ص ١٤ .

كم دموع أرقتها فى ربى العيـ ش فأنبتن فى ثراها ورودا
والذى يقطع الحيـاة قريراً يحسب التاعس الشقى سعيدا [١]

ويصمت أحيانًا فتتكلم قصيدة الوحدة [٢] :

أقرأ الكون صفحة أستبين الرأى فيها وأستمد فنـونى
تتـوالى على خيـالى مجاليه كأنى أراه نصـب عيونى
خالصًا من تكلف القول بين الناس من جاهل ومن مفتون

وهو وفى . . . ولا يكشف رصيد الوفاء كالنائبات . . . وقد نظر رامى يومًا فإذا صديق له تتقاذفه الأمواج فى بحر الحياة لتطوح به على الشاطىء الآخر الذى لا يؤوب منه الذاهبون . فقال :

كيف أرثيك يا رفيق شـبابى يا نجى من شـيعة الأحباب
أبدمعى ؟ الدمع أرخص ما يبكى به صاحب على الأصحـاب
أنت أولى بأن يبلل مثواك بطل مـن الفؤاد المـذاب
لهف نفسى كيف انطفأ ذاك النور بعينيك كانطفـاء الشهاب
لهف نفسى على فؤادك قد قر بجنبيك بعـد طول اضطراب
يا كبير الآمال هل هذه الرقدة غايات روحـك الدآب
أكذا تنطوى معـالمك الغر ويخبو سـناك تحت التراب
ويروح الذكاء والمنطق العذب وحسن الأخـلاق والآداب
فجعتنى فيك الليـالى وقد كنت عقيدى وناصرى فى طلابى
وأخى فى مشاعرى لك نجواى وسرى فى مشهـد وغيـاب
طار لبى لما نعيت وضاقت بى دنيا كثيرة الأسـباب [٣]

وهو وفى إذا غدر المتوددون :

---

(١) « الوتر البالى » ص ١٩ .
(٢) قصيدة « الوحدة » ص ١١ .
(٣) « محمد تيمور » ص ٥١ .

إنْ يغب عنك معشرٌ عبدوا فيك قديمًا جمالَك الفتّانا
فأنا الصادقُ الوداد إذا حال محبٌّ عن الوداد وخانا(١)

ويبدو أن شاعرنا من شيعة ابن المعتز الذى بلغ من رقته أنه كان يتلمس الجمال حتى فى القبح فيهواه . . . ورامى لم يكتف بالولاء للجمال الراحل بل وجد من مزهره وتراً يغنيه ويطب له بما يرقرق من غناء :

ولقد يذبل الندىُّ من الزهـر ويبقى عبيره أحيانا
ولقد يخفت الرخيمُ من الصوت ويشجو رنينهُ الآذانا
ولقد تغرب المهاة وتكسو الأقحَ من بعدها ثيابا حسانا
ولقد ينضب الغديرُ ويبقى زهره فوق شطه ألوانا(٢)

وهو بعد هذا رفّاف النفس ، جيّاش الصدر ، زاخر القلب والروح بمعانى الجمال المبثوث فى الكون ، حتى إذا طمى عليه الأسى حينًا ضاق بالسكون وهو الشاعر ، فإذا بهذه الصرخة تندّ عن شفتيه وهو مجهود :

أين وحى الخيال والوجدان يستقى منه خاطرى ولسانى
أسكوت والكونُ جمّ المعانى وسكونٌ والنفسُ فى ثوران(٣)

إنه يريد أن يملأ الجو غناء وتطريبًا . إنه يودّ أن يودعه أساه ، ويبثه شكواه ويُسمعه أناته رويّة شجية مسعدة على البكاء . . . هكذا يقول :

يا بنات الشعر انفحينى وغنينى وهاتى من شيقات المعانى
لا أريد الرحيل عن هذه الدنيا ولم تمتلىء ببث جنانى
إن صعبًا على المزاهر تبلى لا تناغى على أكف القيان

---

(١) « الجمال الراحل » ص ٢٥ .
(٢) « قصيدة الأنغام السجينة » ص ٥٣ .

وشديداً على النفوس مداراة أساها بالصبر والكتمان
فاجعلى أنّتى رويّاً فبعض النوح أشجى من مطربات الأغانى
والحداءُ الرخيمُ فى المهمه القفـ ـر عزاء للعيس فى الوخدان (١)

ولم يعلن مخاوفه فى قصيدة « الأنغام السجينة » وحدها ، بل إنه فى قصيدة « نبعة الشعر » يعود إلى حديثها فى كثير من الإشفاق :

إنى لأخشى أن تموت عواطفى ويجفّ ذاك النبع من أشعارى
وتقرّ نفسى بعد ثورتها فلا يهتاجها شىء سوى التذكار
وترى مجال الكون عينى خاليًا من بهجة الآصال والأسحار
إنى ليحزننىَ بقائى صامتًا ولدىّ هذا الكنز من أفكارى
فى الشعر تأساتى وفيه رفاهتى وإليه أشكو قسوة الأقدار
فإذا سكت فقد حرمت شكايتى ولرب شكوى نفّست أكدارى (٢)

وهو يعرف دواءه :

ما أطلق الطير الشجى غناؤُه مثل ابتسام الزهر والنوار
أو نضر الزرع البهيجَ بساطُه كالشمس والماء النمير الجارى
أو أرقص البحرَ الخضمّ عبابُه كالبدر يشرق باهر الأنوار

إنه يدور حول المعنى ولا يصرح به . . . إن الشاعر يهمس فى خفوت كمن يحدّث نفسه :

الحبُّ نبعُ الشعر منه تفجرت عينُ المعانى والخيال السارى
الحبُّ لحنُ النفس وقّعه على وتر القلوب بنانُ موسيقار
الحبُّ يفسح فى الحياة مراحها ويحفّها ببدائع الآثار
ولربّ ساعة خلوة هفّافة طالت عن الأجيال والأعمار
ولرب وجهٍ أبدعت قسماتُه أبهى من الجنات والأنهار

---

(١) قصيدة « الأنغام السجينة » ص ٥٣ .
(٢) قصيدة « نبعة الشعر » ص ٥٤ — ٥٥ .

ولرب ثغر باسم أحيـا المنى وأطارها فى النفس كل مطار [١]

إذن برح الخفاء . . . إنه الحب . . . هو الداء وهو الدواء . . . إنه عامر النفس بمعنى الحب حتى قبل أن يلقى الحبيب ويفتح عينه عليه . . . معطر الجو بعبير الهوى قبل أن يطالع روضه أو يقبّل ورده . . . إن الحب فى نفسه منذ شب عن الطفولة الساذجة معنى عائم ، وخاطرٌ حائم وشعور هائم وخيال صناع . . . حتى إذا التقى بالحبيب أول مرة لم ير غريباً . . . إن الشاخص أمامه المعنى بعد أن تحدد ، والخاطر بعد أن قرّ ، والشعور بعد أن استقر ، والخيال بعد أن تميز ، والظنون بعد أن تجسمت حقيقة ، وتمثلت واقعاً . . . هكذا — صور شعره . . . اللقاء الأول :

لست أنساه إذْ وفدت عليه وهو ما بين خاطرى وظنونى
فإذا روحه تصـافح روحى قبل شدّى يمينـه بيمينى
وإذا الوجهُ ليس يغرب عنى أنا شاهدته بعين يقينى
وإذا نحن قبل أن نبدأ القول حبيبـان من طوال السنين [٢]

وقلبه ليس للهوى وحده ، فهو يخفق مع كل خافق . . . يستقبل الطيار فيتراءى له القلوبُ الواجفةُ التى ترقب عودةَ النسر المحلّق ، وبها من الإشفاق أضعاف ما فيها من الفرح . ويحس الشاعر معها فلا يكاد يحييه حتى يذكرها :

أيها الطائر المحلّق فى الجو سلام عليك فوق المطـار
سهرت أعين ورفت قلوب تسـأل الله رحمـة الأقدار
تتمنى لك السلامةَ فى مسراك ليـلا وغـادياً بالنهـار
تسأل الريح هل ألمّت خفافاً بجناحيـك أم أطافت ضوارى

---

(١) قصيدة « نبعة الشعر » ص ٥٤ — ٥٥ .
(٢) قصيدة « اللقاء الأول » ص ٥ .

تسأل البرق هل أضاء لك الأفق ... وأنجاك من مهاوى العثار
تسأل الفجر أين طالعك اليوم ... وأين السبيل فى الإبكار
تسأل الليل هل أصاخ لنجواك ... حنيناً إلى ربوع الديــار (١)

وهو ودود . . . له فى مصر أخلاء ، وفى للشام أعزاء ، وفى الشرق كله أحباء وأصفياء . . .

وهفا بى إلى الشآم حنين ... للقاء الأحبــاب والإخــوان
جمعتنى بهم ديارى فكانوا ... أنس روحى ومستسر جنــانى
ضمنا مجلس الغناء فأرسلت ... بكائى من الهوى والزمان
ثم ساقيتهم ودادى وخففت ... أساهم ورفهوا أحــزانى
هزنى الشوق للقاء فأرسلت ... خيالى فى مسبح الوجدان
ثم ناجيتكم بشعرى على البعد ... وأودعتــه صفى بيــانى
وقضى الله أن أراكم وأروى ... ناظــرى من بهــاء تلك المجانى
فإذا الدار منزلى وإذا الأهل ... لداتى وإذا لغاكم لسانى
وإذا بى حللت فى إخــوانى ... وإذا بى نزلت فى أوطــانى (٢)

ويزف التحايا إلى الإخوة فى الشرق . . . فيقول :

قل لهم ساكن على النيل يهدى ... شــوقه عن يمينــه والشمال
لأحبــاء شاق نفسى أمانيهم ... ورفت أحــلامهم فى خيالى
جمعتنى بهم على البعد آفاق ... من العمــر ماثلات حيالى
من قديم أضفى على الكون ... آيات من العلم والهدى والجمال
أو حديث ذقنــا رضاه سوياً ... وســهرنا على ضنــاه ليالى (٣)

وإذا كان كل إنسان يحب وطنه ويتشوف إليه فى غربته ، فى تعلق

---

(١) قصيدة « عودة الطيار » ص ١٠٥ .

(٢) قصيدة « إلى سدرة الشام » ص ١١١ — ١١٢ .

(٣) قصيدة « نجوى » ص ٩٦ .

وحنين فإن الشاعر المحب . يبلغ من هذا الحب أوج تمامه بما هيأته له فطرته من صفاء وهفهفة ووقدة . . . لقد سافر راحى إلى باريس فلم تلهه مدينة النور عن مصر الحبيبة الأم . . . وكان أن خايلته الضفاف الخضر والعسجد المذاب وسوامق النخيل و بواسق التجر وهتاف الكروان وهدأة الليل ولألاء البدر ، وألق السماء :

تلك مصر فكيف ينساك يا مصر ... فؤاد معلّق الأوطار (١)

ويرفرف قلبه فيهتف من أعماقه :

أينما كنتُ أنت كعبةُ آمالى ... ووقف عليك طول ادكارى
وشبابى ضحية لك يا مصر ... وعزت ضحيةُ الأعمار
إننى فى رباك فتحت عينىّ ... فأبصرت أولَ الأنوار
وسقانى النميرُ من نيلك العذب ... فروّى تعطشى وأوارى
وغذانى ثراك فاشتد غرسى ... وصفا موردى وطاب قرارى
فيك أهلى وفيك مثوى أبى ... البرّ ومغدى الخلصان من سمارى
ونواحيك رددت ما أفاض الحزن ... فى خلوتى من الأسرار
ومناحيك مسرح الفكر تجلو ... لخيالى مآلف التذكار
سمعت ضحكتى صبيًّا وأصغت ... لنواحى بجيش فى أشعارى
أنت وكرى الذى أحن إليه ... بعد طول الطواف والأسفار
فى سوى أرضك الكريمة لا ... يحلو رواحى ولا يطيب ابتكارى
وإذا طال فى البلاد اغترابى ... فى سبيل العلا فأنت قصارى (٢)

إذا تعاظمنا هذا القدر من شعره فى موضوع واحد يدور حول شخص الشاعر ، وإذا أضفنا إلى هذا أن القدر الباقى من ديوانه أو معظمه إن هو إلا ترانيم يغنى بها حبه ويبث هواه ، وقفنا على حقيقة من حقائق الدراسة وهى وضوح بل سفور ظاهرة « الأنا » فى شعره . . . فهو منكبّ على

---

(١) و (٢) قصيدة « حنين » ص ٦٠ — ٦٢ .

نفسه يستعرضها و يستجليها ويتسمعها من ثم أسرف فى الغناء لها . . . على أنك تستطيع أن تعتد هذه الظاهرة بعينها آية صدق الشاعر ، وشاهد فنيته ينبع من نفسه ، فهو إذن لا يداجى فى شعوره ، ولا يمالىء فيه أحداً من الناس . فرامى لم ينظم فى المدح أو الهجاء كما أشرت . وما ينبغى أن تكون الشاعرية إلا صدقاً فى الشعور والتعبير .

• • •

هذه استشفافات و إيحاءات شعره . . . قد تكون صادقة تمام الصدق تطابق الواقع وقد تزيد عليه . . . ولكن دارس الشعر لا يملك فيما يستعين به من أدوات إلا أن يعايش الشاعر ، ويصغى إلى ديوانه . ثم يمضى بعد هذا فى دراسته مستهدياً أضواء أخرى تكتمل بها الرؤية وترشد الأحكام .

رامى وأم كلثوم

رامى وأم كلثوم ، أو القصة التى عشنا نسمع فصولها موقعة على الأوتار ويرددها التخت بلسان صاحبتها ، فيردد الناس وراءها الألحان ، أو حوادث القصة . . .

طالما تساءل الكثيرون عن رامى وأم كلثوم . . . فإلى هؤلاء قصة (الشاعر والبلبل) . . .

حضر رامى من الخارج يوم الاثنين ٢١ يولية سنة ١٩٢٤ . . . وفى يوم الخميس الموافق ٢٤ يولية سنة ١٩٢٤ دعاه صديقه السيد محمد فاضل ليسهر معه ، وكانت السهرة فى حديقة الأزبكية ، وكان فيها كشك أمام مدخل تياترو حديقة الأزبكية يعزف فيه عبد الحميد على . . . وفى هذا الكشك سمع أم كلثوم أول مرة . وكان رسم الدخول عشرة قروش .

كانت تغنى بغير آلات . . . وأوعز إليه صديقه بعد أن أجلسه فى الصف الأول أن يطلب إليها قصيدته . . .

— مساء الخير يا ستى .

— مساء الخير .

— أنا حاضر من غربة ونفسى أسمع قصيدتى . . .

ففطنت إليه أم كلثوم وقالت « إزيك يا سى رامى »[1] وغنت :

الصب تفضحه عيـــونه وتنم عن وجـــد شجونه[2]

---

(١) هذه الواقعة بتواريخها وحوارها رواها رامى أكثر من مرة فى أحاديث إذاعية .

(٢) هذه القصيدة من بحر قصيدة شوقى « يا ناعماً رقدت جفونه » =

دخلت القصيدة المرنمة أذنه ، ودخلت فى ركابها أم كلثوم . . . قلبه . . . وخرج من الحفلة هائمًا يردّد ما سمعه منها . . . فقابله فى ميدان عابدين الأستاذ عبدالله حبيب الذى كتب عن هذه المقابلة سنة ١٩٢٧ (١) : « فى الهزيع الثانى من إحدى ليالى الصيف المقمرة ، منذ عامين وبعض عام ، فى ميدان عابدين الفسيح ، والليل ساهم سادر ، والقمر يغمر فضاء الله بنوره الوضاح ، والسكون ينشر ظله على الأفق ، فلا نأمة ولا حركة ، ولا روحة ولا غدوة . . . فى تلك الساعة — ولا أنساها — إذ أنا عائد إلى منزلى مع بعض الرفاق بعد سهرة طال بنا سمرها ، سمعت صوتًا شجيًا يرجع فى الفضاء لحنًا خافتًا ، فتلفت أتبين موضع الصوت فإذا شبح فى ضوء القمر كالخيال السارى يتناوح بهذا اللحن الشجى ... ويح نفسى ! . أهذا وحى شاعر ؟ . فقلت لرفيقى : أسمعت ؟ . قال : أجل . وكان الصوت خافتًا متواصل الترجيع ، لا تشك فى أن صاحبه إنما يرسله لشكواه وبثه . . . وأسرعنا الخطى ، فلم نكد نستبينه حتى صاح به صاحبى رامى ! ! رامى ! ! » .

ثم سافرت أم كلثوم فى اليوم التالى إلى رأس البر ، فأكد البعد حبه ، وأشعل خياله . وانتظرها أربعين يوماً حتى عادت . . . وأعلن عن حفلة لها فى البسفور فهرع إليه . . . فما إن رأته حتى غنّت للمرة الثانية . . . « الصب تفضحه عيونه » كانت تحية ، وكانت عود ثقاب .

ثم زار رامى أم كلثوم ، وكانت مقبلة على ملء أسطوانات أوديون ،

= محاكاة له من إعجاب. وقد غنى قصيدة «الصب تفضحه عيونه» قبل أم كلثوم الشيخ أبو العلا محمد أول من غنى شعر رامى .

(١) من مقالة للأستاذ عبد الله حبيب فى صحيفة النواب بتاريخ ٩ يناير ١٩٢٧ .

فراجع لها الأغانى وهذّب بعض ألفاظ فيها . . .

كانت أم كلثوم التى شاهدها رامى سنة ١٩٢٤ لأول مرة فتاة ذات عقال تغنى وتبكى ، وكان شابًّا شاعراً دفاق المشاعر ، شجىّ الحس . . . وكطبع الحب دائمًا يبدأ بعطف من الرجل ، وينتهى بعطف من المرأة ، بدأ حب رامى لأم كلثوم . . . وبدأت أغانيه لها وللغناء المصرى الجديد فى الوقت نفسه :

تمرض الحبيبة فيقول الشاعر :

يا للى جفاك المنـام ... عليـل أليف السهاد
النـوم على حـرام ... وانت طـريح الوساد

وتسافر فيقول :

أيها الفلك على وشك الرحيل ... إن لى فى ركبك السارى خليل
رقـرقت عينـاى لمـا ... قال لى حـان الـوداع
وبكى قلبى مما ... ذاع فى الكون وشـاع

ويشتاق فيرسل إليها عرض البحار :

اذكرينى كلمـا الفجـر بدا ... ناشراً فى الأفق أعلام الضياء
يبعث الأطيـار من أوكارهـا ... فتحييـه بترديد الغنـاء
قد سـهرت الليـل وحدى ... بـين آلامى وسـهدى
وانجـلى الصـبح وهـلا ... وانطـوى الليـل وولى

وتصله وتدعوه فيقول :

رق الحبيب وواعـدنى يوم ... وكان له مـدة غايب عنى
حرمت عينى الليـل م النوم ... لا جل النهـار ما يطمنى

صعب على أنام أحسن أشوف فى المنام
غير اللى يتمناه قلبى

وتجدد العهد بادئة ، وتسخو فى البذل على غير انتظار فيقول :

جددت حبك ليه بعد الفؤاد ما ارتاح
حرام عليك خليه غافل عن اللى راح

ويسمع الكثيرون الأغانى معنى ولحنًا وصوتًا فحسب ، ولكن العارفين يدركون ويبتسمون ، ثم يجمعون خيوط القصة الطريفة ويعرفون الجديد من أخبارها . . .

فتحت أم كلثوم عينها على حب شاعر ومعان جديدة لم يكن لها بها سابق عهد . . . كانت ذكية لم يغب عنها ما فى هذه المعانى ولا ما وراءها ، فلم تتردد فى هجر أغانيها الأولى التى كانت تحمل طابع العصر المغرم بالستائر والشاطر والقناطر ، وتلقفت الأغانى الرقيقة وراحت تترنم بها فى كل حفل . . . وتعلق الناس بالمغنية والشاعر .

إن من يقرأ شعره فيها يلمح أن أبرز المعانى وأكثرها وروداً معنى « الملهمة » الموحية فهى منه بمثابة النموذج من الرسام . . . نقرأ معًا من قصيدة « إلى سومة » :

صوتك هاج الشجو فى مسمعى وأرسل المكنون من أدمعى
سمعته فانساب فى خاطرى للشعر عينٌ ثرّةُ المنبع
سلوى من الدنيا تعزى بها قلب شديد الخفق فى أضلعى
كأنما لفظك فى شدوه منحدر من دمعى الطيّع
فيه صباباتى وفيه الضنى يشكو تباريح فؤادى معى
نظمت أشعارى وغنيتها منظومة الحبات من مدمعى
حسبى من الشعر ومن نظمه صوتك يسرى فى مدى مسمعى

غنّى وخلّى الدمعَ يرو الذى قـد جفّ من نفسى ولم ينبع (١)

ثم أحب الفنانُ الرسام، النموذج. وعشق الشاعرُ الحزينُ، الصوتَ المسعد، فهواه بعد أن استوحاه ومضى يهتف (٢) :

يا مـن شـدت بنسيب ناجيت فيـه حبيبى
ورددت مـن شكاتى ورجّعت مـن نحيبى
فجّـرت عينَ خيـالى من بعـد طول النضوب
أنمت حـزن فؤادى بصـوتك المحبـوب
وكنـت مـألف حسى وظل روحى الغـريب
شـاطرتنى ما ألاقى فى العيش من تعـذيب
وكنت فى البث عنى شـريكتى فى نصـيبى
فخف عـبء همومى وهـان حمل خطـوبى

ولما كان الفهم النفسى أسرع الطرق إلى الحب، فلا غرو أن يقول الشاعر بعد هذا :

وآنس اليـوم قلبى نجيّـه فى القلوب (٣)

وهنا تبدأ القصة التى تسمر بها القاهرة والمدائن فى مطالع الشهور . . . لا . . . لست أنا التى أرويها لك . . . لقد تضمنها ديوانه . . .
إن القصة ترويها قصيدته « يقظة القلب » (٤) :

أيقظت فىّ عواطفى وخيـالى وبعثت منى ميت الآمـال
واثرْتِ نفسى بعدطول سكونها فى حين لم يخطر هواك ببـالى
وحسبتنى أصبحت جمراً هامداً وظننتنى أحيـا بقلب خال
فإذا بحبك هاج ما عفّيته وأجـدّ لى الوجد القديمَ البالى

(١) هذا البيت جاء على لسان ابن زيدون فى مسرحية رامى «غرام الشعراء».
(٢) قصيدة « إليها » ص ٧٠ .
(٣) قصيدة « إليها » ص ٧٠ . (٤) ص ٧١ .

وغدوت أشقى ما أكون تنعمًا بهواك لما دبّ فى أوصالى
أنسيتنى الماضى بمسا أودعته من حزن أيام وسهد ليال
ومحوت من فكرى الذى قاسيته فى هذه الدنيا من الأهوال
فرضيت ما قسم القضاء وما انطوت نفسى عليه من الأسى القتال
وغنيت عن نعمى الحياة وطيبها بشقاوتى فى الحب واسترسالى

والبيت الأخير الذى ميزت مقاطعه بخطوط يمثل بداية طور جديد فى حياته ، وبداية طور جديد فى فنه سنناقشه بعد قليل .

أما شقاوته فى هذا الحب فنها تمزقه « بين الشك واليقين » . . .

لقد بدأ يترنح فى دوامة تحكى عنها هذه الأبيات (١) :

قد أحاطت بلك العيون فما أملك ألّى مكان عينى منك
وجرت حولك الأحاديث حتى كدت أنسى الذى أحدث عنك
وأطافت بلك القلوب وقلبى ضاع فى غمرها ولما يضعك
خبرينى أى القلوب تناجين فقد همت فى غيابة شك
أى نفس سبرت غور هواها وتحديت سرها بالهتك
فتغنيت كى تنيمى أساها نومة الطفل بعد طول التشكى
وتبادلتما الهوى بعيون تتلاقى بالغيب خوف التحكى
هى نفسى ؟ قولى أقرى شجاها وأبينى عن سر نفسك تلك

مرة أخرى تحس قلقًا فى موسيقاه ، وهو الذى يترقرق فى مواضع أخرى كماء الغدير . وسنلتقى بهذه الطبقة من الموسيقى فى الصفحة التالية من قصيدته « فى البعد والقرب »

أم نفوس حسبت فيها وفاءً وتوهمت حبها دون شرك

أو تحسبه قد استراح أو رقى إليه جواب ؟ لا . . . وإلا لما عاد ثانية

(١) قصيدة « بين الشك واليقين » ص ٧٢ .

يقول[١] :

أخاف عليك من نجوى العيون ... وأخشى أنّة القلب الحزين

وأشفق أن تخادعك المعانى ... بأعين ناظريك فتخدعينى

وأعلم ميل نفسك أن تكونى ... هوى الدنيا ومنبعث الحنين[٢]

فأخشى قولة العذال مالت ... لغيرك وانمحى كذب الظنون

وما أوليك من دمعى وسهدى ... وأرسل فى غرامك من أنينى

أقدمه وبى خجل إعسانى ... أظن ضننت بالشىء الثمين

وهل عزّت على نفسى حياة ... أقدمها على قصر السنين

لقد لج به الهوى الآن فلم يعد العذاب يثنيه .

وقفت على هواك مطار فكرى ... ومسرى خاطرى وهوى فنونى

ووحدتُ المعانى فيك حتى ... رأيت الكونَ خِلواً من شجونى

فهل يرضيك ما ألقى فأرضى ... نصيبى فيك من ذلّ وهونَ ؟

وأطلب فى الشقاء عزاءَ نفسى ... بما قدمت من عطف ولين[٣]

أم الظن المريب أضلّ رشدى ... وأرسل ليله يغشى يقينى

وأنت كما عهدتك فى غرامى ... نجيّة قلبى السراعى الأمين

وصاحبة الصوت صاحبة دلال يتجنى ، فهى تتحكم وتستبد ،

---

(١) قصيدة « كذب الظنون » ص ٧٣ .

(٢) يقول رامى فى « غرام الشعراء » على لسان ابن زيدون لولادة :

تعالى نفن نفسينا غراما ... ونخلد بين آلهة الفنون

أرتل فيك أشعارى وأصغى ... إلى ترجيعك العذب الحنون

وأنظم فيك من حبات قلبى ... معانى الوجد والحب الحزين

وأعلم ميل نفسك أن تكونى ... هوى الدنيا ومنبعث الحنين

وهل تجدين صباً مستهاما ... يحبك للهوى والشعر دونى ؟

(٣) ص ٧٣ .

وكأنها هند تستجيب لابن أبي ربيعة[١] ، وإلا فبماذا تفسر أبيات الشاعر هذه ؟ :

لو كنت نائية المزار بعيدة ... عنى لعشت على مُنى ورجاء
وحملت برحَ البعد حتى تنقضى ... أيامه وأراك بعد تناء
فأنال من لقياك ما أحيا به ... ويكون فيه عن الحياة غنائى
لكننى اعتدت اللقاءَ فأصبحت ... أيامه موصولة ببقائى
فإذا التمستك ثم لم أظفر بما ... أملت من قرب وطيب لقاء
أحسست فقدان المنى وحرمت فى ... عيشى سبيل تعللى وعزائى
وخطوت أيام الفراق لأننى ... ما عشتها فأعد فى الأحياء[٢]

وهى تحاوره حوار من يستدرج عن قصد ، ويتخابث عن دلال ، لأنه يعلم ويوقن أنه محبوب معشوق :

شكت سهراً وفى عينى ... دليل السهد والسهر
فقالت لم أنم ليلا ... قطعت مداه بالسمر
وقلت سهدته حتى ... نشقت نسيمة السحر
وحيداً بين سمّار ... من الآمال والذكر
قضيت الليل محروماً ... متاع السمع والبصر[٣]

هذا بعينه ما تود أن تسمعه وتبحث عنه . . .

وأنت قضيته مرحاً ... وما تدرين ما خبرى

هى تعلم هذا ، ولكنها تستمرئ عذابه طبيعة المعشوق . . .

سهدتُ وكنت ساهرة ... وليس السهدُ كالسهر

---

(١) الإشارة هنا إلى بيتى عمر بن أبى ربيعة .
ليت هنداً أنجزتنا ماتعد ... وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لايستبد

(٢) قصيدة « فى البعد والقرب » ص ٧٥ .

(٣) قصيدة « بين السهد والسهر » ص ٧٦ .

ويل للشجيّ من الخلىّ ! . . .

ولكن حب شاعرنا ليس من ذلك اللون الذى يولده نجل العيون ورشاقة القوام أو النظرة والابتسام ... إلخ قائمة المشهيات . . .

كلا . . . فمثل هذا حب دارج يتكرر فى كل يوم وليلة ، فى كل صقع وجبل ، لأنه وسيلة الحياة إلى الاستمرار . . . ولكن حب شاعرنا حب فنان . . . حب وراءه غاية أبعد من رغبات الحس أو شهوات الجسم ، إن همّ رامى كله أن يكون شاعراً موصول النغم . . . فهو يبحث بمصباح ديوجين عن موطن وحى ومبعث إلهام . . . وبالطبع ليس كالحب حافز للشاعرية ، وليس كالحب مرسل للشعر . . . إنه بنعيمه وشقائه « عين للشعر ثرة المنبع » ، كما يقول رامى . . . فما بالك إذا كان المحبوب صاحب فن ، والمحب شاعراً فناناً .. هنا تتراقص عرائس الشعر على عزف المزاهر وحنين العود . . . ويبدو أن الموسيقى أقرب الفنون إلى الأدب . . . لأن رامى من ديوانه، يعشق الصوت الجميل أيًّا كان صاحبه . . . من النساء أو الرجال . . .

أشاد بعبد الوهاب فى أبيات لو أنها قيلت فى امرأة مغنية لقطعت بأنها غزل صريح ! ! فمن شعره فيه[1] :

هذه روحى أنا تصغى إليك ... وفؤادى خافق بين يديك
فاستمع تطريب نفسى واتخذ ... خفق قلبى ريشة فى أصبعيك
ثم رجع من أناشيد الأسى ... واشج من قبل سماعى مسمعيك
وأطل إن غناء ساريا ... بجناحى طرب من شفتيك
يحمل النفس إلى دنيا المنى ... حيث يسرى بك ساجى ناظريك

وصالح عبد الحى عنده :

صادح يبعث الشجون إلى القلب ... ويدعو الأرواح أن تستهاما
أرسلته الأيام طيراً شجيًّا ... يكسب الزهر نضرة وابتساما

(١) قصيدة « إلى محمد عبد الوهاب » ص ٧٥ .

شب فى بهجة الزمان وناجى بسمات الربيع عاماً فعاما
كلما شاقه الجمال تغنّى فسمعنا غناءه إلهاما
وهو يسقى الأسماع سحراً حلالا يجعل النوم فى العيون حراما
مطرب الحى عاش للحى صوت قد حلا رقة وطاب انسجاما
فيه ذكرى الهوى وعهد التصابى وزمان ضم المنى والغراما[1]

وعلى هذا النسق وصف رامى صوت أم كلثوم . . . وليس هذا فحسب ، بل إن رثاءه لسيد درويش وأبى العلا محمد ومحمود صبح ، ووقوفه بالوصف المبدع عند ألحانهم وأصواتهم وأدائهم ، وأساه عليهم ، لينم عن هيام خاص بالصوت الجميل أيّاً كان صاحبه . . . وقد عاش رامى شبابه فى رفقة من طرازه يخفون إلى صاحب الصوت فى أى وقت ، ويسعون إليه فى أى مكان ، تتحلق منهم حوله الندوة ، وتتألف منهم لرامى السمار والندامى مما مد له فى بساط المتاع ، وأغراه بالسهر والاستماع . . . وهكذا عاش شبابه بل عمره كله . . . رجل فن ، وأنيس سمر ، وسمير حفل ، وعاشق صوت ، وصائغ شعر . . . وأنت لا تكاد تذكر له طرفاً من حديث هؤلاء حتى يتمم قائلا :

يوم كنا نهيم فى جنة الدنيا ونقضى شبابنا أحلاما
لا نرى العيش غير كاس وزهر حسنا منظراً وطابا شماما
فشربنا على سماع الأغانى سلسلا تترك الهموم يتامى
وسمونا على جناح الأمانى فاتخذنا بين النجوم مقاما[2]

إذن الصوت هو السبب أو البداية فى أم كلثوم . . . على أنه ليس وحده . . . يضاف إلى هذا رغبته الملحة الطاغية فى قول الشعر بل الفيض به ، والانتساب إليه ، والتفوق فيه . . .

أحبك كالطير الذى يستخفه إلى النوح والترجيع برد ظلال

---

(١) ، (٢) قصيدة « صالح عبد الحى » ص ١٠٧ — ١٠٨ .

أحبـــك كالآمال لاح بريقها فضاءت بها نفسى وأشرق بالى
أحبك كالبدر الذى فاض نوره على فيح جنات وخضر تلال
أحبك كالنسمات هبت عليلة فأدت إلى قلبى رسائل حالى[1]

إنه حب عارم ! . . . نعم ولكننا نبتسم حين يفضى إلينا بالسر :

أحبك لا ، بل أعبد الشعر والهوى جمعتهما معنى يشوق خيالى
ويملى على فكرى الذى لا أقولـــه وقلبى من الوجد المبرّح خال

منطق . . . ولكن المتنبى قال شعره ولم يحب حبًّا رومانطيقيًّا حتى غدا غزله أقل فنونه لخفاف عاطفته فى هذه الناحية[2] .

وأحسب أن « رامى » حين تعلق الصوت والشادى لم يرسم خطة ولم يخطر بباله هذا السبب الذى يقول به فيما بعد ، مدفوعًا بكرامة الحى أو عزة الفنان أو غضب عارض . . . إن الحب يولد كالشرارة ولا يوضع كالخطة ! .

هنا مزيد من تعليل :

هو يتك لم أطلب مساجلة الهوى فأسمى الهوى ما كان غير سجال
صلينى وإلا فاهجرينى فإننى أحبك فى هجر وطيب وصـــال
جعلتك همى فى الحياة وشاغلى ويا شد ما ألقى ولست أبالى
إذا كان فى حبى سبيل إلى العلا إذن هان فيه من دموعى غـــال

وما ذروة المجد التى امتد دربها على حرّة حزّن ووعر جبال
سوى روضة الأشعار وشّع ظلها أفانين أفكارى وزهر خيـــالى
وأنت بذاك الروض بلبله الذى يرجع فى مغناه عذب مقالى
بعثت فنون الشعر فىّ فصغتها وغنيتها لحن الهوى فحلا لى[3]

(١) قصيدة « غرام الشاعر » ص ٧٧ .
(٢) إلا إذا كان الشاعر يقصد بالشعر ، الشعر الغزلى الدافىء فهذا لا ينبعث إلا من عاطفة مشبوبة .
(٣) قصيدة (غرام الشعراء) ص ٧٧ .

لم يبق موضع للشك الآن . . . أليس كذلك ؟

وهو لا يكتم عنها هذا المعنى ، بل يجهر أمامها به حتى حين المناجاة . . . فبينما هو يناشدها مُدلِّلاً :

تعالى نفنِ نفسينا غراما ونخلد بين آلهة الفنون
أرتل فيك أشعاري وأصغى إلى ترجيعك العذب الحنون
وأنظم فيك من حبات قلبي معانى الوجد والحب الحزين
حرمتك هيكلا ونعمت وحدى بروحك أستبيه ويستبينى
بعادك شاغلى عن كل فكر وقربك مركبى بحر الظنون
وهجرك فيه تشويف الأمانى ووصلك باعث نور اليقين (١)

بينما يسترضيها بهذه الرقة إذا به يصارحها قائلا :

جلوت لناظرى روض المعانى فغرد خاطرى بين الغصون
وردد من غنائى فيك حتى سرت فى الجو رائحة الحنين
وهل أستاف أنفاس المغانى ولم أسمع بمسراها أنينى
وهل تجدين صباً مستهاماً بحبك للهوى والشعر دونى
ويبعث فيك روح المجد طالت مناراته على شط السنين (٢)

روح المجد . . . دائماً المجد . . . المجد . . . هو الذى يستحثه ويعنيه . . .

لا ، بل إنه يذهب فى سبيل هدفه واقتناص شوارد المعانى لشعره إلى حد لا يرى معه بأساً أن يهواها بعض أصحابه !! ليتخذ من الغيرة والغضب والعتاب وسائر المشاعر التى تنجم عن مثل هذا الموقف وقوداً للنار المقدسة التى ينضج عليها شعره . . . ماذا تريد بعد هذا ؟ ماذا تريد أبعد من قوله :

إنى خلعت عليك ظل شبابى فإذا هواك منى ولمع سراب

---

(١) و (٢) قصيدة « تعالى » ص ٧٨ . وقد سبقت الإشارة إلى ورود هذه الأبيات فى مسرحية « غرام الشعراء » .

أستمرئُ الأحزان فيك وأستقي ‏ ‏ من دمعيَ الهامى كئوس شرابى
هيمان أطلب من يهدئُ سورتى ‏ ‏ وأريغ من يهواك من أصحابى
فنظل نستبق الحديث عن الهوى ‏ ‏ من غيرة وتغضب وعتــاب (١)

لرامى فى الحب حالات قد يبدو بعضها غريباً ، فهو يتسمح إلى حد ينفض معه الغيرة وقليلها من لوازم الحب يؤكد معناه وينعش روحه . . . ولكنك تعجب حين تسمع « رامى » يناجى حبيبه :

كيف لا تنعم العيون بمــرآك ‏ ‏ وتشجى بصــوتك الأذنــان
أنت ضنّى ولا أضن على الناس ‏ ‏ بمرأى جمــالك الفتــان
كل من يفهم الجمال حرىّ ‏ ‏ بمتــاع العيــون والوجدان
وحرام علىّ أنى أذود الطــير ‏ ‏ أن تســتظل بالأفنــان (٢)

وهو يلمح دهشتك ولا تخفى عليه فيبتسم قائلا :

غيرة النفس أصلها الخوف من ميل ‏ ‏ حبيب إلى محــبّ ثــان
فإذا ما أيقنت إخلاص مــن ‏ ‏ تهــوى قطعت الشكوك بالإيمان

ثم يلتفت على عادة الشعراء ويقول :

فتركت الأنام فى طرب الإعجاب ‏ ‏ بالذوق فيكمــا والمعــانى
لك فخر أن حبها لك دون الناس ‏ ‏ مهمــا حالت وجوه الزمان
وثناء الدنيا عليك لما اخترت ‏ ‏ هوى دون فاتنات الحسان

على أى حال ينم الشعر عن أن ليلاه صاحبة صوت « تشجى با الأذنان » . . . وهو يعرف أن حجبها عن العيون محاولة غير ناجحة ، إذ كل ميسر لما خلق له . . . إذن يستعلى على الغيرة ! . . . ولما كان يحس فى قرارة نفسه قسوة موقفه فقد راح يدحض عن كرامته الحرج ، ويسوّغ موقفه بدعوى اليقين من إخلاص الحبيب والإيمان به . . .

---

(١) قصيدة « دمعة مكتومة » ص ٨٢ .
(٢) قصيدة « الغيرة » ص ٥٦ .

ماذا أقول ؟ قد يرزق المرء الحكمة برغم أنفه . . ولكن هذا ليس من طبائع النفوس ؛ ولا أدل على هذا من أنه عاد فوخزته الغيرة وخزة أطلقت هذه الآهة :

ساورتنى الظنون فيها ولكنى ... غالبت سوء ظنى حينا
ثم ساءلتها أتحمل عنى ... بعض ما ذقت فى هواها فنونا
فثنت طرفها وقالت أما تبرح ... يا ظالمى تسىء الظنونا
كلنا سيئ الظنون وما أحسب ... إلا أن الأمانة فينا
إنما يغتلى ارتياب الذى يهوى ... إذا كان بالحبيب ضنينا
والذى خاف ضيعة الحب لا ... أحسبه فى هواه إلا أمينا[1]

ورامى المحب لا بأس عنده من البعاد القصير المدى يجدد الحب ، ويوقظ رواقده :

غبت عنى من قبل هذا ولكن ... كان لى رقبة اللقاء الدانى
أتعزى بما تمنين من وعد ... وما أستطيب من نشدان
وأريغ القصد النبيل بما يبعثه ... الحب من بعيد الأمانى
فإذا ما لقيت وجهك جددت ... طماحى إلى العلا واستنانى
وتزودت ما أطيق به الصبر ... على ما حملت من أحزانى
هذه نعمة البعاد إذا خالطه ... القرب بين آن وآن
فإذا طال طال بى اليأس واليأس ... سبيل تفضى إلى النسيان[2]

ولكنه وفىّ لا يتطرق إلى قلبه سلوان ، رقيق لا يقوى على نسيان :

وعزيز علىّ أنى أناسك ... وأنسى الذى مضى من زمانى
إنه صفوة الحياة وهل أقرب ... منها هوى إلى الإنسان
نرتضيها رنقًا فكيف تناسى ... الذى فات من زمان هان

---

(١) قصيدة « ظن المحبين » ص ٥٧ .
(٢) قصيدة « حيرة النسيان » ص ٥٨ .

صورته يد الخيال على الخاطر نقشاً منضر الألوان
وقعته أوتار قلبى بالشعر نشيداً مرجع الألحان
هاتفاً فى فضاء صدرى طوراً بالمراثى وتارة بالأغانى
ولحنه وتلك عندى شجو فى مدى مسمعى ولبّ جنانى

فإذا دب الملل بينه وبين الحبيب فلا يسلم به ، ولو من ناحيته على الأقل ، إذْ يشى وصفه بحسرته ويؤكد حبه الصادق :

دبّ ما بيننا الملال وما أذهب هذا الملال بالأشواق
أصبح القرب والبعادُ سواء بعد أن كنت لا تطيق فراقى
ثم جازيتنى على صدق حبى بقليل من الوداد الباقى
وقصارى الغرام فى قلب من تهواه أن ينتهى إلى الإشفاق

وهذا المعنى الأخير يروعه ويهوله حتى ليصرح بخوفه منه[1] .

وهو يتعزى بالوفاء عن كل شىء . . . عن اللقا والتدانى :

خبرينى على العهود تقيمين فأغنى عن اللقا والتدانى
وأرانا وقد تراسل روحانا بنجوى همس من الكتمان

وتعزيه أحياناً حيرة فيزفر :

آه لو أكشف المُخبّأ من أمرى وأدرى الخلاص مما أعانى
إننى إن قدرت عشت قرير النفس عمرى بنعمة الإيقان
فتناسيت إن نسيت وما كنت بقاس فى الحب أو خوّان
أو ظللت الأمين رغم تجافيك وكنت الوفىّ فى الهجران
غير أنى فى حيرة والذى يبقى لك الحب حيرة النسيان[2]

ولشاعرنا حين ينسى ، أو يريد أن ينسى ، أو يزعم أنه سينسى ،

---

(١) أغنى أغنية رامى الشهيرة .
خايف يكون حبك فى شفقه علىّ
وانت اللى فى الدنيا لى ضى عنيه
(٢) ، (٣) قصيدة (حيرة النسيان) ص ٥٨

صورة طريفة تروقك، لأنها تضحكك وتبكيك معاً . . . يُضحك منها التحدى الذى يتطاول وهو لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، وكيف وهو مسلوب القلب والإرادة ؟ ويضحكك منها المكابرة التى ترتدّ لساعتها مغلوبة وهى تحسب أنها قطعت فى النسيان شوطاً إلى الإمام. ويبكيك فى الصورة الطريفة مريض الهوى الذى يخال النسيان دواء فإذا به أنكى عليه من الداء « حتى غدا من فرط ذكراه همومه » . يبكيك العاشق الذى يريد أن يسلو فيهفو ، أو يقسو فيحنو ، ويكون قصاراه من مشروع النسيان أن يهدر ألفاظه فى صيغ شتى من مثل : أسلو فأنسى — التناسى — ناسياً ونسيت — النسيان ؛ ليؤكد معنى النسيان فى نفسه ، ثم انتهى به المطاف إلى « الحنين للحب المقيم » ! :

هجرتك علّنى أسلو فأنسى   وأطوى صفحة العهد القديم
وغالبت التناسى فيك حتى   غدا من فرط ذكراه همومى
ذكرتك ناسياً ونسيت أنى   أريد البرء للقلب الكليم
وكنت أحاول النسيان جهدى   فصرت أحن للحب المقيم (١)

ذكرتك ناسياً ! . . . يريد أن ينسى فيتذكر ، ما أشبه قوله بالتدليل منه بالهجران : وغير ملوم فهو مسلوب الإرادة كما قلت وأغنية (هجرتك) بعد هذا أوسع تفسيراً ، وما يفعل الهزار السجين ؟ لا حيلة له ولا مناص :

روحى جنيت عليها   لكن بغير اختيارى
لو كنت أعلم أنى   أشقى بهذا الإسار
إذن لأطلقت قلبى   فطار كل مطار
وهام فى كل روض   حال من الأزهار
وعبّ فى كل جار   عذب من الأنهار (٢)

---

(١) قصيدة « ذكرى النسيان » ص ١٧ .
(٢) قصيدة « الهزار السجين » ص ١٨ .

ولكن أنَّى له هذا ؟ وهل يُرَجَّى السلو ممن يقول :

مالى إذا غاب عن عيونى ... بكت على بعـــده عيونى
وإن أردتُ البعـــاد عنه ... أصبحت أدنى إلى الجنون
أقول من يا ترى روىَّ ... يشرب حسن الحبيب دونى
وأى أذن إليـــه تصغى ... تلقط من دره الثمين[1]

عجبًا ! إن الشاعر الذى يقول : « عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك » . . . يرعد ويبرق . . . وإن ثورته عاصفة . . .

من أنت حتى تستبيحى عزتى ... فأهين فيك كرامتى ودموعى
وأبيت حرّان الجوانح صاديًا ... أصْلَى بنار الوجد بين ضلوعى
أعمى عن الحسن الذى هامت به ... نفسى وطال إلى سناه نزوعى[2]

ترى أى حسن ؟

وأصم عن نغم عشقت سماعَه ... أيام كان القلب غير سميع

وهو فى ثورة الغضب يقول إنه أضفى عليها من شعره ، ورطب لسانها ببدائع الكلم ، وروائع المعنى ، ويوانع اللفظ ، ومنضد القصيد . . . مما حفز الملحن إلى الارتفاع وأغراه بالإبداع ليتساوق اللحن مع اللفظ التياه ، ويتواءم النغم مع وشيع الشعر وفن الشاعر . . .

إنى كسوتك من خيالى حلّة ... وشّعت صفحتها بزهر بديعى
ونشرت من روحى عليك غلالة ... كالليل آذن فجـــره بطلوع
نديت جوانبـــه ورقّ نسيمه ... وأرنّ فيه الطير بالترجيـــع
وأجلت فيك طبائعى فشربتها ... ووردت منهل شـــعرى المطبوع
وسمعت همسَ خواطرى فحكيته ... لحنًا يشوق النفس بالتوقيع
ووصلت من عيشى بعيشك حقبةً ... شاركتنى فى ذكرها المرفوع

---

(١) قصيدة « الذكرى » ص ٢٨ .
(٢) قصيدة (ثورة نفس) ص ٧٩ .

« شاركتني » هنا توحي أنه الأصل[١] .

يا زهرة أنضرتهـــا ورعيتها وسقيت تربتها زكيّ نجيعي

ليست هذه مناجاة . . . إنها أنة جديدة . . . إن الشاعر يتحسر . . .

أو تحسبه بعد هذا كله قد سلا ؟ . . . كلا وإن كان يزعم أنه يحب الحب ذاته أكثر من شخص الحبيب ! .

أهواك ما دام الخيال يمدني من وحي حبّنا بكل بديع
وأطيل أرضَك ذوبَ قلبي راضياً ما دمت في ظل الهوى ينبوعي

الإلهام . . . مادة للشعر . . . رفد من الوحي . . . هذه هي المسألة .

فإذا ذَوَيْتُ مع الزمان وأقفرت نفسي وأقوت من شذاك ربوعي
هاجرت أطلب في الرياض خميلة تندى عليّ بيانعات فروع
فتفيأت نفسي رطيب ظلالها ونسيتُ سالف ذلّتي وخضوعي

أرأيت ؟ . . . إنه لا يبالي ، أو هكذا يزعم . . . إنه يلتمس الحب ابتغاء صوغ الشعر وتلوينه بألوان القلب الغنيّ بالألوان . . .

إن الشاعر حائر ، وإننا أيضاً حائرون من أمره ومعه ، تارة يتسمح ، وآونة يسلم بموقف صاحبه ، وآناً يغضب . . . إنه «غرام الشعراء» .

لقد سلسل رامي قصته مرة أخرى في مسرحية جعل بطلها هذه المرة الشاعر ابن زيدون ، والبطلة « ولادة » — بنت المستكفي بالله — التي لم يجر على لسانها روائع الأدب كما هو مشهور عنها ؛ بل أجرى رامي على لسانها الغناء ! ! وجعل ابن زيدون يسمعها تغني فيتعلق قلبه بها . . . القصة نفسها .

---

(١) ولكن الشاعر اليوم في مجالسه ينسب إليها ذيوع شعره فالذين يطالعون الدواوين المطبوعة آلاف ولكن الذين يرددون وراءها الأغاني ويسمعونها ملايين . . .

لقد كانت (ثورة نفس) . . .

أحمد رامي

ويتساءل كثيرون : لماذا لم يكتب للمسرح الغنائي غير مسرحية «غرام الشعراء» ؟ وأقول إنه لم يكتب للمسرح ، ولكنه في الحقيقة كتب لنفسه . . . كتب قصته هو من امتلائه بها . . .

ويؤكد هذا طبيعة الحب في المسرحية وأسبابه وملابساته .

ويؤكده ورود كثير من أبياتها في شعره لأم كلثوم .

حتى أوبريت « عايدة » التي اقتبسها من « فردى» كتبها من أجل أم كلثوم في مرحلة تحمسها للسينما بعد أن كتب لها « وداد » ، و « دنانير » .

وبعد ؛ فأين الحقيقة في هذا كله ؟ ولعل الشاعر صادف مثل هذا السؤال كثيراً في طريقه ؛ فهو يقول :

أرادوني على أني أبـوح ... وهل يتكلم القلب الجـريح
وماذا يبتغون وفي فؤادي ... جوى أفضى به الدمع الفصيح
نعم أهوى ولا أخفي غـرامي ... ومن شرف الهوى أني صريح
وأما إنْ سُئلتُ هل اصطفتني ... سكتّ فما استرحت وما أريح
ومن لي أن أقولَ تعلقتني ... وقلب الغانيات مدى فسيح
تلاقيني فتخلص لي نجيًّا ... وألمس حبَّهـا فيما يلوح
وتزدحم القلوبُ على هواهـا ... فتنكرني وفي كبـدٍ قريح (١)

أرأيت كيف تداوره ، وتطوح به شدًّا وجذبًا ، جزراً ومدًّا ؟ . كان الله للمحبين ! .

وهو يفهم صاحبته جيداً ، ويعرف أنها بطبيعة الأنثى المركبة فيها تهفو إلى الحب وتتمنى الحبيب ، ولكنها في بلبال ، كيف تختار ومن تستوثق ؟ ويزيد في حيرتها ازدحام القلوب عليها ازدحاماً تضلّ فيه الحقائق.

ويسهل خداع الزيوف ، كل هذا يمضي خفيفاً مسرعاً على الرغم

---

(١) قصيدة « بين الصراحة والكتمان » ص ٨١ .

مما يختلس من ريّق الشباب ونضارة الصبا . ويحسّ رامى ويدرك ويقول بالزجل والشعر .

فضلت أعيش بقلوب الناس　　وكل عاشق قلبى معاه
شربوا الهوى وفاتوا لى الكاس　　من غير نديم أشرب وياه

* * *

أفنيت عمرك فى طلاب حبيب　　ومضى الصبا وهواك غير قريب
حاولته فى كل نفس شاقها　　من فيك لحن العشق والتشبيب
فهفت كما تهفو الحمائم شفّها　　طول المطار إلى ظلال رطيب
حتى إذا خفت إليك وحومت　　وجدت ربيع القلب غير خصيب (١)

ويعود فيسائلها تحت ستار « هوى الغانيات » :

كيف مرت على هواك القلوب　　فتحيرت من يكون الحبيب
كلما شاق ناظريك جمال　　أو هفا فى سماك روح غريب
سكنت نفسك الحزينةُ وارتاحت　　وميلُ النفوس حيث تطيب (٢)

وهى على هذا تضنّ وتسخو . . . أو هذا ما نفهمه من قول رامى :

ويخادع العشاق أنفسهم بما　　قد أملوا من وعدك المكذوب
وزعت قلبك بينهم حتى غدت　　نفمى تسائل أين منه نصيبى
ثم انثنيت تجمعين شتاته　　هيهات من قوم بغير قلوب

خطوط كبيرة من تاريخ حياة . . .

ولقد أهنت مدامعى فسفحتها　　وأطلت فيك تغزّلى ونسيبى
وتخذت منك لخاطرى أنشودةً　　وقعتها بتنهدى ونحيبى

---

(١) قصيدة « القلب الضائع » ص ٨٥ .
(٢) قصيدة « هوى الغانيات » ص ٨٦ .

فإذا بسمعك صمٌّ عن لحن الهوى ‏ ‏ ‏ وإذا بقلبك لا يحس وجيبي[1]

إنه لوم المحب وقسوة الحنان المهدور . . . ثم يصف الشاعر حالة كتبها فأحسها ولمسها :

وإذا بقلبي بعد أن حمل الضنى ‏ ‏ ‏ لم تبق منه مضاضة التجريب

لقد انتهى به المطاف إلى اليأس ، وهو إحدى الراحتين . . . وأنا أعرف عن يقين أن « رامى » شاعر الشباب يسمعها فى شيخوخته ويطرب لصوتها وينتشى ، من إعجاب . . . أما الرفرفة وأما الغيرة وأما الغضب والثورة وسواها مَن تهاويل الشباب فقد استحالت إلى ذكرى هادئة اللون قد تخايله على إثر سؤال فتسوقه إلى الحديث ، وقد يبعث مرائيها فى النفس تودد عارض أو ندم أسوان ... وهو، كما حدثتك عنه وحدثك شعره ، ولوع باقتناص مادة جديدة لشعره ، وهو فوق هذا كله إنسان عاطفى فيه حنَّة وحنين ، ومن ثم لا يدع التودد أو الندم أو غيرهما يمران بدون أن يستلهمهما ويستلهم الماضى معهما . . . وقد يلهمه هذا كله فى حرارة وقدة حس تسفر عن مثل قطعته « جددت حبك ليه » المتوهجة . . . ولكن ثق أن هذا كله إلهام ساعته ، ووحى لحظته . . . ثم يقف عند عتبة الشعر ولا يتخطاها . . . الزمن وحده هو الذى يخطو . . . ويسير . . . ويجرى ، ولكن أم كلثوم تظل على الأيام ، فى تاريخ الغناء ، كما هى فى شعر رامى :

فهى قمرية تغنت على الفرع ‏ ‏ ‏ ولمَّا تهمّ بالطيران
قد براها الخلاق من خفة الظل ‏ ‏ ‏ ومن رقة النسيم الوانى
وبراً مطرب الحنين أغنا ‏ ‏ ‏ ولهاة كالخالص الرنان
ترمل الشعر منطقاً عربياً ‏ ‏ ‏ بيّن الآى واضح التبيان

---

(١) قصيدة « القلب الضائع » ص ٨٥ .

تتناغى الألفاظ فيه من النطق سليماً وتستبين المعانى
فإذا صورة تجلت إلى العين وغابت فى مستقر الجنان[1]

ومثل هذا يصف كل منصف صوت أم كلثوم وأداءها بدون أن يلحق الوصف مبالغة أو إغراق . . . ويصفها راءى عند الغناء ، فيقول :

وقفت ترسل الغناء فأنّت بلسانى ونوّحت فى غناها
وشجاها ما رجعت من نسيبى وشجانى من صوتها ما شجاها
فاحتواها الشجا وراحت تغنى « يا هناه » فى هجرها ورضاها
يا هنانى شقيت بالهجر حتى وصلتنى وزال عنى جفاها
يا شقانى نعمتُ بالقربِ حتى حرمتنى الأيام طيبَ لقاها[2]

طريف من الشاعر الالتفات فى البيت الرابع ودلالته على أنه إنما يغني لنفسه دائماً فى شعر غنائها ، فهو إما يصفها أو يصف حاله ، والوصف فى الحالين متصل به . . .

وجميل من الشاعر المقابلة الرقيقة فى البيتين الأخيرين بين الهناء والشقاء ، والشقاء والنعيم . . . ومما يزيد فى نعومة هذه المقابلة وشجاها وقوعها بعد « يا هناه فى هجرها ورضاها » . .

ولكن يبدو أن الطائر لا يقوى على التحليق دواماً ، فإن اللفتات التى أشرت إليها لا تحجب عنا التهافت النفسى فى مثل قوله :

وما أوليك من دمعى وسهدى وأرسل فى غرامك من أنينى
أقدمه وبى خجل عسانى أظن ضننت بالشىء الثمين

هل الدمع والسهد والأنين شرط لازم فى الحب ؟ وبخاصة من شاعر ينشد « الإلهام » وحده من وراء هواه أو هكذا يقول ! . . .

---

(١) قصيدة « إلى أم كلثوم » ص ٩٣ .
(٢) قصيدة « إليها » ص ٩٥ .

وفيم الخجل بعد هذا كله ؟ وما الشيء الثمين إذا كان الدمع والسهد والأنين رخيصًا فى نظر الرجل ؟ وما كنه النفاسة فى رأى الرجولة المعتدة ؟ هل هان الرجل فى الشاعر ؟ وفيم التساؤل وهو نفسه يعترف بهذا المعنى :

فهل يرضيك ما ألقى فأرضى نصيبى فيك من ذل وهون
وأطلب فى الشقاء عزاء نفسى بما قـــدمت من عطف ولين

ولِمَ الذل والهوان والليونة ؟ . . . لا أحسب أن هذا يرضى المرأة مهما لاقى الرجل من هذه الأحاسيس الناعمة المسرفة فى النعومة . . . إن المرأة خاصة إذا نشأت فى الريف تنشد الرجولة القوية المستبدة ، على تلك المتخاذلة المستضعفة إذا أعوز الأمر . إن القوة معبودة كالبطولة عند الناس وبخاصة المرأة القوية الشخصية .

ولست أدرى لماذا يحضرنى هنا خاطر . . . انصراف أم كلثوم عن الرجل فى الشاعر حين فرضت عليها مهنتها وذكاؤها معًا أن تشحذ شاعريته . . .

وبعد . . . ترى هل انتهت القصة ؟ وكيف يترك الناس قصة حب بدون أن يبدوا رأيهم فيها ويطوف فضولهم بها ؟ فهم مثلا يتساءلون من منهما رفع الآخر ؟

عندى أنهما متقاربان ؛ الشاعر سما بفنها على جناحى خياله ومعانيه ، ورقرق لها اللفظ ووشّى لها القصيد . . . هو الذى هذب وصقل الأغانى . ولكنها أيضًا كانت وسيلته إلى الشهرة العريضة لا سيما بعد أن أصبحت سيدة الغناء ، وزينة المحافل . . .

حقًا عرفه الناس قبلها شاعراً طلع عليهم بدواوين ثلاثة من شعره . . . ولكن شهرته استفاضت بلا مراء منذ أخذ يؤلف الأغانى لها . . . حتى ليعزو ناقد إلى هذا التطور فى حياته ، صفاء شعره الحديث . بل إن

الدور المميز الذى أخذه فى الأغنية المصرية ودخل به تاريخها أكبر فى رأيى من دوره شاعراً ! . فيرى الأستاذ دريني خشة أن شعره الأخير « أجدّ ديباجة وأرقّ نسجًا ، وأحفل بالموسيقا الداخلية من جميع شعره القديم الذى شملته دواوينه الثلاثة ، ونحن نعنى بالموسيقا الداخلية ذلك التوافق الصوتى الجميل الخلاب ، الذى يتماوج مع انفعالات الشاعر ، والذى اكتسبه رامى بلا شك من طول اختلاطه بالموسيقيين والملحنين والمطربين »[١] .

ويقول آخر : « إن رامى له فضل على " أم كلثوم" فقد نفخ فى صوتها من روحه وحلاوة شعره ما جعلها فى مقدمة اللواتى تزعمن الغناء فى أنحاء الشرق العربى كافة » .

ويقول ثالث : « ومما يؤخذ على شاعرنا رامى أنه قتل نفسه فى سبيل المرأة ؛ فهو شديد الحب لها ، ولذلك فهو كثير الشك والقلق ، وكان خيراً له وللشعر وللأدب أن يفارق وجه هذه المرأة وينطلق إلى غيرها فالحياة "سبيا" فيها كثير من المواد التى تلهب خيال الأديب وتوسع أفق تصوره .[٢] »

---

(١) السيد محمد أمين حسونة من مقال « أعلام المدرسة الحديثة » فى مجلة الحديث التى تصدر فى حلب ويقول الأستاذ يونس القاضى معاصر ظهور أم كلثوم : من قصائد رامى التى ملأت الصحف والمجلات عرف الناس أم كلثوم .. ومن طقطيق رامى وأدواره التى كان ينظمها لها خصيصا اشتهرت أم كلثوم .

ومن تلحين الدكتور صبرى لكل هذه الأدوار والطقاطيق وغيرها صعدت أم كلثوم سلم الشهرة الواسعة والمكانة التى لاتدانيها فيها مغنية الآن .

من اليمين تتوكأ على شاعر مشهور ، ومن اليسار تستند على ملحن معروف. وفى هذا ومن هذا طارت أم كلثوم وحلقت فى سماء المجد الفنى بجناحين قويين من رامى وصبرى .

(العدد ٢٦ من المسرح الصادر فى ١٩٢٦/٥/١٧ ص ١٥)

(٢) عدد فلسطين الصادر فى ٢٣ أيلول سنة ١٩٣٤ .

وفى رأيى أن الشاعر عينه مفتوحة على الكون يتأمله ويستوحيه حتى ليخيل إليه أن كل شىء فيه يحدثه حديثًا أو يهمس فى أذنه سرًا من أسراره ومعنى من معانيه . . . فهو يستلهم مجلى من مجالى الطبيعة أو يستشعر خلجة من خلجات النفس ، أو يستقرئ منظراً فى فيلم ، أو يسمع مغنيًا فى شارع ، أو قصة من صديق لها من ذكرياته نظائر فتحرك شجنه .

قالت له زوجته[1] ذات مساء وهى ترنو إلى ابنهما محمد « النوم بيلعب فى عينه » فبرقت فى ذهنه لساعته مطلع أغنية « النوم » وهو « النوم يداعب عيون حبيبى » ، ثم تطورت الأغنية والفكرة فيها ، وتسلسلت بما يبعد بها عن الحبيب الصغير البرىء . . . عن الطفل محمد إلى . . . الحبيب . . . حبيب الخيال أو حبيب الحب . . . من يتصور ؟

ومن الناس من يقول[2] : « . . . لو أن رامى لم يتجه إلى الأغانى ، ولم يعرف أم كلثوم ويكلف بها هذا الكلف كله ، لكان الشاعر المصرى فى هذا الجيل غير منازع ، ولتوالت دواوينه تعمر المكتبة العربية وتغمرها بنفحات تطغى على الكثير من نتاج الخالدين . . . ولكنه قدر » .

ولكن الشاعر إذْ تناقشه فى هذا القول يقول لك : إنه لا يعتقد فى الإمارة . . . إن الشعراء كالفاكهة لكل واحد لون . ويمضى فى الدفاع فيقول : إنه على إعجابه البالغ بشوقى كان لا يعجبه غزله ، ويحكى أنه كان يقول له : « غزلك لا يحرق » ! .

ويتصل بهذا قول الأستاذ دريني خشبة : « وأول ما يلفت النظر فى حياة رامى وإنتاجه الأدبى هو انصرافه العجيب المفاجئ عن قرض الشعر ،

---

(١) تزوج رامى سنة ١٩٣٥ .

(٢) الأستاذ صالح جودت من مقال (شاعر الشباب أحمد رامى) — الهلال أبريل ١٩٥٣ .

واقتصاره على توشية أغانيه المصرية الساحرة ، وذلك منذ أن دخلت فى حياته " الآنسة " أم كلثوم ! » .

* * *

وفى رأيى أن « رامى » أخذ دوراً محسوباً فى الأغنية لا يقل شأناً عن الشعر بعامة ، وشعره بخاصة ، بل لعله يزيد . . . فهو ، شاعراً ، يمتاز بالسلاسة لا بالفحولة . وهو ، شاعراً ، له نظراء ومنافسون كثيرون ، ولكنه فى الأغنية مميز متفرد الطابع والأسلوب ؛ لأن أغانيه — وسيتضح هذا عند دراستها فى الفصول القادمة — لم تكن جوفاء ، فقد وفر لها قيماً فنية من حيث الصورة والتعبير جعلتها نقطة تحول وعلامة طريق .

الأدب نفسه استفاد من هذا التحول ، لأن الأغنية الرامية الرقيقة الخفة أشاعت الحس الجمالى ، والجمال الفنى ، وارتفعت بالذوق العام ونأت به عن الكلام الهابط .

ولأمر ما : هبطت الأغنية من جديد ، بعد أن رحلت أم كلثوم ، وانفض السامر شاعراً ومجيباً وحبيباً .

رحل الصوت الدفاق الألاق ، ونضب الوحى بعد أن غاب مصدره ، وتبدل كل شىء : العصر والناس والظروف .

وسمعنا بعد (رق الحبيب) و (ليالى القمر) أغنية عن النميمة ، تهبط السلم وتهبط معها قيم الفن والذوق ، وقصيدة عن الرذيلة تحملها رسالة ، ومع الأسف أمواج الأثير .

ولو كان هناك عقل يفكر ، وثقافة تختار ، وذوق يصطفى ، لما تبوق مغن بغير وعى ، أو أسف غناء بغير حساب :